أ.د. جمال نجم العبيدي

دراسات في أدب ما قبل البعثة



دراســات

في أدب ما قبل البعثة

تــأليف

أ.د. جمال نجم العبيدي



رقم الإيداع المحلي: 5356 / 2003 دار الكتب الوطنية بنغازي
رقم الإيداع الدولي: ردمك 3 - 34 - 820 - 9959 ISBN
الطبعة الأولى: 2003 ف



دار شموع الثقافة
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: 625898 23 00218
تلفاكس: 625899 23 00218
صندوق بريد: 30819 الزاوية
البريد الإلكتروني:
www.darshoumouaThaqafa@hotmail.com
الزاوية
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، محمد وعلى آله وأصحابه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

عُرِفَ العربُ قديماً باللَّسن والفصاحة، وبالأساليب الأدبية الرفيعة، وكانوا أمراء البيان في حُسن عبارة وطلاقة لسان، لا يتلعثم خطيبهم، ولا يكبو شاعرهم، تجود قرائحهم، وتتفتق ملكاتهم، فأنتجوا ألواناً من الأدب البليغ، وأجناساً من الفن البديع، ورسموا بالكلمات لوحات فنية رائعة، أثارت إعجاب الناس على مرّ الدهور والعصور، حتى تربّعوا على عرش البلاغة، وامتلكوا زمام الفصاحة، وتمكّنوا من اللغة، وأمسكوا بزمام البيان، فازدهت تعابيرهم بوشاح أدبي جميل، في إيجاز عبارة، ووضوح دلالة.

وفي قمة نضجهم اللغوي، وإبداعهم الأدبي بُعث الرسول الكريم، ونزل القرآن العظيم، بلسان عربي مبين، أبدع مما كان عليه العرب في حسن النظم وجودة السبك، ولا عجبَ في ذلك، فهو ليس من كلام البشر، وتحدّاهم أن يأتوا بمثله أو بمثل شيء يسير منه فعجزوا، إلاّ أن هذا التحدّي وذلك العجز لم يكن حطّاً من مكانة العرب اللغوية ولا تسفيهاً لمقدرتهم الأدبية؛ ذلك لأن كلام البشر مهما بلغ من الجودة والحسن لا يرقى بأي حال من الأحوال إلى مستوى كلام الخالق عز وجل، لذلك ظل النتاج الأدبي للعرب في الفترة التي سبقت

البعثة النبوية الشريفة محطّ اهتمام الجميع حتى بعد مجيء الإسلام، ويكفي أن نشير إلى أن النبي محمداً ﷺ كان يُعجب بهذا الأدب الرفيع حتى قال: «**إنّ من البيان لسحراً وإنّ من الشعر لحكماً أو حكمة**».

وكان الكُتّاب والباحثون في مختلف العصور من بين ما استهواهم هذا الأدب فراحوا يجمعونه في كتب، ويؤلفون حوله المجلدات باحثينَ وناقدينَ وشارحينَ، حتى إذا جاء العصر الحديث وبدأت الدراسات العلمية والمنهجية كان لأدبِ ما قبل البعثة النصيب الأوفر في هذه الدراسات، بدئاً بالمستشرقين الذين وجدوا فيه مادة غنية خصبة، وانتهاءً بالجامعات ومراكز البحوث والدراسات الخاصة في الوطن العربي، حتى حفلت المكتبة العربية بوفرة من الدواوين الشعرية والكتب والرسائل الأكاديمية التي تتعلق بأدب ذلك العصر، فقد كان هذا الأدب هوالركيزة القوية والأساس المتين الذي اعتمد عليه الصرح الأدبي الشامخ في مختلف عصوره، وكان هذا الأدب هو المعين والمصدر الذي استقى منه أدباء العصور اللاحقة لنسخ أدبهم، فاحتذوا حذوه وساروا على منواله.

وعلى الرغم من محاولات البعض في التجديد والخروج على القوالب القديمة إلاّ أن ذلك الأدب لا يزال حتى يومنا هذا هو الأُنموذج الأمثل الذي يطمح كل أديب إلى أن يصل إلى مستواه ويحاكيه أسلوباً وبلاغة وخيالاً وصوراً زاهية ناطقة.

وهذا الإعجاب هو الذي دفعني إلى تأليف هذا الكتاب والإدلاء بدلوي مع هذه الدلاء الكثيرة، ولا أدّعي أنه يتميّز عنها، بل على العكس من ذلك إذ أنه اعتمد عليها وأخذ الكثير منها، ولكن صياغته جاءت بأسلوب مبسّط يستطيع فهمه الأديب وغير الأديب، ويستفيد منه المتخصص وغير المتخصص، وهو أكثر فائدة لطلاّب الجامعات والمعاهد العليا الذين يرغبون في الحصول على المعلومة بأيسر الطرق وأقصرها، كما أنه جاء مطابقاً للمفردات المقررة في جامعات الجماهيرية الليبية.

وقد حاولت ـ قدر الإمكان ـ عدم الخوض في التفاصيل الدقيقة لأنها من اختصاص الأدباء والنقاد ومؤرخي الأدب. كما أنني استخدمت الأسلوب المباشر في سرد المعلومات دون تطويل يفضي إلى الملل، أو اختصار يخلّ بالغرض، ولم أفصّل الحديث في قضايا جانبية يربطها خيط رفيع بالأدب، بل تم التركيز على ما هو ضروري وله اتصال وثيق بأدب تلك الفترة.

أما العنوان فقد جاء بهذه الصورة ليدلّ ـ دون لبس أو غموض ـ على ما أنتج من أدب سبق البعثة النبوية الشريفة، متحاشياً التسمية الشائعة (الأدب الجاهلي) لئلا يظن البعض أن معنى (الجاهلية) مأخوذ من الجهل الذي هو ضد العلم، فهذا يتناقض مع الواقع الذي كان يعيشه العرب في ذلك العصر، ويتناقض مع ما ورد في القرآن الكريم الذي استخدم كلمة(الجاهلية) وما اشتق منها في غير ذلك المعنى.

وقد ارتأيت أن أدرس الموضوعات بشكل متصل ومترابط لكي يوضّح بعضها بعضاً، إلاّ أن منهجية الدراسة اقتضت تقسيم موضوعات الكتاب على مجموعة فصول تحدثت فيها عن مفهوم كلمة (الجاهلية) وتحديد العصر الذي أُطلقت عليه وحياة العرب السياسية والاجتماعية والدينية والإقتصادية وحروبهم وأيامهم وأسواقهم.

كما تحدثت عن مدلول كلمة (أدب) والمعاني التي استخدمت فيها في كل عصر، والمراد بمصطلح (تأريخ الأدب) والاعتبارات التي قُسّم على أساسها إلى عصور، ثم فُصّل القول في قسمي الأدب: الشعر والنثر، حيث دُرست بدايات الشعر وأولوياته وكيفية نشأته ثم صعوده سُلّم التطور وارتقائه أعلى درجاته في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام، وكيف تمَّ نقله من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر عن طريق الرواية الشفوية حتى وصل عصر التدوين، وما أصابه خلال هذه المرحلة الزمنية الطويلة من خلط أو حذف أو تقديم أو تأخير، أو نسبة الشعر لغير قائله وهو ما سمي بـ(الانتحال).

وقد فصّلت القول في الحديث عن أغراض الشعر وفنونه والموضوعات التي عالجها وكيف تداخلت في القصيدة الواحدة، مع اعطاء نماذج شعرية لكل غرض من تلك الأغراض ، بعدها تحدثت عن أهم خصائص شعر ما قبل البعثة اللفظية والموضوعية والفنية، وما تميّز به هذا الشعر من سمات مثّلت مرحلة مهمة من مراحله.

وفي الحديث عن الدواوين الشعرية والاختيارات ذكرتُ ما جمعه الرواة والأدباء القدامى من شعر القبائل والأفراد وما وصلنا من تلك الدواوين الشعرية والاختيارات التي قام بها أصحاب الحس المرهف والذوق الأدبي من النقاد والشعراء، من ذلك كتب المعلقات والشروح التي دارت حولها، وكتاب المفضليات والأصمعيات وكتب الحماسة، وتمت دراسة معلقتين من بين المعلقات هما: معلقة طرفة ومعلقة لبيد حيث تمثلان البيئة البدوية في ذلك العصر أصدق تمثيل، وقد ذكرت نبذة عن حياة طرفة ولبيد، واخترت مجموعة أبيات من كل معلقة وذكرت معاني مفرداتها في الهامش، ثم اتبعتها بتحليل عام للمعلقة.

وجاء الفصل الأخير للحديث عن النثر بأقسامه المتعددة من الخطب والقصص والحِكم والأمثال والوصايا وسجع الكهان مما كان شائعاً ومعروفاً في ذلك العصر.

ولا بد من الإشارة إلى أن أدب هذا العصر ليس منفصلاً عن الأدب الإسلامي وأدب العصور اللاحقة، وإنما هو وثيق الصلة بها بحيث لا يمكن وضع فواصل أو حواجز بين أدب العصرين، فالشعراء الذين كانوا في عصر ما قبل البعثة، هم الذين ساهموا في الإبداع الأدبي في العصر الإسلامي مع تغيير في القصيدة والفكرة، وعليه فالعصران متداخلان وما أنتج فيهما من أدب يعدّ وحدة متكاملة لا يمكن فصل أجزائها، أما مسألة تقسيم الأدب إلى عصور فالهدف منه تسهيل مهمة دراسته.

وإني لآمل أن يجد قارىء هذا الكتاب ما ينير السبيل أمامه، أما من أحب التوسع والإستزادة فبإمكانه الرجوع إلى أمهات الكتب والمصادر ليأخذ منها التفاصيل الدقيقة والقضايا الصغيرة، ويلمَّ بكل أطراف الموضوع الذي يريد التعرّف عليه؛ إذ لا يمكن لباحث واحد أن يحيط بكل صغيرة وكبيرة، وأن يتحدث عن كل شاردة وواردة؛ ولهذا يبقى باب البحث والتأليف مفتوحاً إلى ما شاء الله، وليس لأحد أن يقول: إنني وصلت الغاية وأشرفت على النهاية ولو كان الأمر كذلك لأوصدت أبواب التأليف منذ زمن بعيد، إلاّ أن الآداب والعلوم أوسع من أن يحيط بها عالم أو يضمها باحث بين دفتي كتاب، وخير ما يمكن قوله في هذا المجال الإستشهاد بالآية الكريمة: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

أرجو أن يكون هذا الكتاب مفيداً ونافعاً، لاسيما لطلبة الجامعات والمعاهد العليا، وأسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب ويجنبنا الخطأ، وأن يسدد خطانا لما فيه خير الناس جميعاً، إنه سميع مجيب، وبه التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ. د. جمال نجم العبيدي

الفصل الأول

معنى كلمة الجاهلية

أطلق وصف الجاهلية على العصر الذي سبق البعثة النبوية الشريفة، حتى أصبحت (الجاهلية) مصطلحاً يُقصد به تلك الفترة السابقة للإسلام، وكأنما أصبح مدلول هذه الكلمة يقابل مدلول كلمة الإسلام.

وقد وردت كلمة (الجاهلية) في القرآن الكريم في أكثر من آية. فماذا تعني هذه الكلمة؟ هل تعني الجهل بالعلوم والمعارف الذي هو ضد العلم؟ لا.. إنها لا تعني ذلك، لأن العرب في ذلك العصر كانت لديهم معارف متعددة تتعلق بعلم الفلك والطب والأنواء وتتبع الأثر والتأريخ والأنساب وغير ذلك من أنواع المعرفة. إذن ما المقصود بهذه الكلمة؟

يُقصد بهذه الكلمة وصف ما كان عليه العرب قديماً من الحمية والغضب والتسرع في أخذ الثأر ونصرة من استنجد بهم حقاً أو باطلاً حتى كان من أمثالهم «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» وهذا ما يُقصد بالحمية الجاهلية الواردة في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح، الآية: 26] ويتضح هذا المعنى في قول النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري وقد عيّر رجلاً بأمّه «**إنك امرؤ فيك جاهلية**» وهذا المعنى هو الذي قصده عمرو بن كلثوم في قوله[1]:

---

(1) ديوان عمرو بن كلثوم ـ ص78 دار الكتاب العربي ـ لبنان.

ألا لا يـجـهـلـنْ أحـدٌ عـلـيـنـا فـنـجـهـلْ فـوقَ جـهـلِ الـجـاهـلـيـنـا

أي لايفكر أحد بالإعتداء علينا ومحاربتنا والتعرض لنا بالأذى لأننا سنرد عليه هذا الأعتداء بقوة وعنف دون أن تكون للحكمة والروية مكانة في هذا السلوك، وقد سمّى هذا التصرف. جهلاً، لما يتصف به من الحمية والطيش وسرعة الغضب وعدم التفكير في العواقب والنتائج.

وقد يراد بهذه الكلمة جهل العرب بأحكام الدين الإسلامي الجديد وإصرارهم على معاندة الرسول الكريم وعدم تصديقه فيما جاء به من ربه من مبادىء ومُثُلٍ وقِيَمٍ ترسمُ لهم ملامح مجتمع جديد يخلو من الفسق والفجور والكفر والشرك، ويدعو إلى عبادة إله واحد بيده ملكوت السموات والأرض وبيده الخير والشر وهو على كل شيء قدير، وقد تكون هذه المعاندة صادرة عن جهل بما في هذا الدين من مبادىء سامية وأسس قويمة تدعو إلى خير البشر في الدنيا والآخرة.

وهكذا يظهر لنا أن كلمة (الجاهلية) استخدمت للدلالة على العصر السابق للإسلام بكل ما فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر ولم يكن يُقصد بها جهل العرب بالعلوم حيث أنهم كانوا على معرفة بأمور كثيرة تتناسب مع عصرهم، يدل على ذلك نضج لغتهم إذ وصلت أوج تقدّمها مما هيأها لنزول القرآن الكريم بها، حتى عُدَّتْ من أرقى اللغات في العالم في أساليبها ومعانيها وتراكيبها، وما نُظم فيها من شعر بلغ الذروة في الجودة والحسن، واللغة تعد مرآة عقول أصحابها والمتحدثين بها ومستودع علومهم وآدابهم، فلو لم يكونوا قد صعدوا درجات في مضمار العلوم لما نضجت لغتهم وأصبحت بهذا المستوى الرفيع.

تحديد عصر ما قبل البعثة

يقصد بالعصر الجاهلي الفترة التي سبقت الإسلام والمتصلة به دون معرفة بداية هذا العصر أو تحديد أولويته، هذا من الناحية التأريخية، أما من الناحية الأدبية فيُقصد بالأدب الجاهلي الذي أنتجه العرب في الفترة القريبة من الإسلام والتي لا تمتد قبل ظهور الإسلام بأكثر من قرنين من الزمان. فالأدب العربي القديم الذي وصلنا لا يتعدى تأريخه تلك الفترة، ومعظم الشعراء الذين وصلتنا أخبارهم قد عاشوا في تلك الحقبة الزمنية، أما قبل تلك الفترة فلم يصلنا من أدبها شيء، وذلك لأسباب عدة أهمها عدم انتشار الكتابة واعتماد نقل الأدب عن طريق الرواية! وحافظة الإنسان ليست دقيقة مثل الكتابة والتدوين، فكلما طالت الفترة تعرضت الحافظة لحالة النسيان وهذا ما حدث للأدب العربي الذي أنتج في عصور قديمة، حيث أصابه الإهمال والنسيان فاندثر وانطوى مع الزمن. ولم يبق من الأدب العربي إلاّ ما قيل في عصور متأخرة وفي فترات قريبة من عصور الإسلام وهي عصور التدوين، وأدب هذه الفترة ـ لاسيما الشعر ـ قد جاءنا ناضجاً متكاملاً قد استوى عوده وصلب جذعه مما يعني أنه سبق بفترات طويلة كان الأدب فيها بسيطاً ساذجاً. وهذا ما أشار إليه الجاحظ حينما قال: «وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السن أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر الكندي ومهلهل بن ربيعة، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الإستظهار فمائتي عام»(1).

والشعر الذي يعنيه الجاحظ بكلامه هذا هو الشعر الكامل الناضج الذي وصل مرحلة عليا من التطور، أما بدايات هذا الشعر وأولوياته فلم يذكرها الجاحظ لأنها غير معروفة لبعد تلك الفترة ولأن المعلومات حولها مرتبكة مضطربة وهذا ما ذهب إليه عمر بن شبّه حين ذكر أن للشعر والشعراء أولاً لا يوقف عليه ولا يمكن معرفته.

---

(1) الحيوان ـ الجاحظ 1/ 74 طبعة دار الجيل ـ لبنان.

أما ما ذكره الرواة والمؤرخون من شعر ونسبوه إلى آدم عليه السلام حين قتل قابيل أخاه هابيل، وإلى الملائكة وإلى الجن وإلى أقوام بادروا وهلكوا فهذا من قبيل الأساطير والخرافات ومن نسج خيال القصاصين والرواة، وهو ليس صحيح النسبة إلى هؤلاء، إذ كيف وصل منذ زمن آدم عليه السلام إلى عصر التدوين، والفترة طويلة جداً تُقدّر بآلاف السنين إن لم تكن بالملايين. وقد فطن ابن سلاّم الجمحي إلى أمثال هذا الشعر المنحول ونبّه عليه في كتابه (طبقات فول الشعراء) وفنّد هذه الأقوال وردّ عليها مستشهداً بآيات من القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ * وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [سورة النجم، الآيتان: 50 و51] فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أبادهم وأفناهم جميعاً فكيف وصل شعرهم؟ ومن الذي نقله وأوصله عبر آلاف السنين؟

ولمّا كنّا لا نثق بأمثال هذا الشعر ولا نطمئن إلى صحة نسبته فإننا نقف بالشعر عند الفترة التي حددها الجاحظ وهي مائتا عام قبل الإسلام وهى فترة إزدهار الشعر العربي، وما قبل ذلك يمكن أن يُقال عنه (الجاهلية الأولى) وهي فترة مجهولة بالنسبة لنا ولا نعرف من أمر الشعر فيها شيئاً يمكن الاطمئنان إلى صحته.

حياة العرب قبل البعثة

1 ـ الحياة السياسية :

لم تكن حياة العرب السياسية في عصر ما قبل البعثة واضحة المعالم والأبعاد، ولم يكم هناك قانون أو دستور مكتوب ينظّم حياة الأفراد ويلتزم به جميع الناس ويبدو أن هذه الحالة تنطبق على جميع الأمم والشعوب في تلك العهود تقريباً.

إذاً كيف كانت تسير حياة الناس؟ ومالذي ينظم شؤون حياتهم؟ ومن الذي يدبر أمورهم ويحل قضاياهم؟

كانت جزيرة العرب والعراق والشام تضم قبائل كثيرة مختلفة، ولم تكن هناك دولة ذات نظام موحّد تضمهم وتنظم حياتهم السياسية. بل كانت القبيلة تقوم مقام الدولة حيث تكون لها وحدة النسب ورابطة الدم التي تفرض على أبنائها أشبه مايكون بالنظام السياسي الذي يلتزم به جميع أفراد القبيلة طواعية، وهو نظام غير مكتوب وإنما هو تقليد وعرف يكون شائعاً ومتوارثاً.

وكان هناك رباط قوي يجمع بين أبناء القبيلة هو رباط العصبية القبلية، فإذا تعرّض أحد أفراد القبيلة لمكروه أو اعتداء هبّت القبيلة كلها لنصرته والدفاع عنه دون أن يخذلوه أو يتقاعسوا عن حمايته، ولهذا أصبحت القبيلة ملاذ الفرد وملجأه حينما تداهمه الخطوب، وتقديراً لذلك فقد كان يضع نفسه في خدمة القبيلة ويضحي لها بنفسه وماله، لأنها حياته وكيانه، وكرامته مرتبطة بكرامتها. وهو ـ مع اعتزازه بشخصيته ـ يضع نفسه في خدمتها ويعيش لها وداخل إطارها، مدفوعاً بهذه العصبية الشديدة التي سيطرت على نفسه والتي طغت على مصلحته الشخصية وغطت على ميوله وأفكاره فما هو إلا جزء من قبيلته، يسير معها أينما سارت، ويأتمر بأمرها، وهو معها في كل أحوالها سواء سارت على طريق الحق والصواب أم على طريق الخطأ، وقد صوّر الشاعر دريد بن الصمّة هذه الحالة بقوله:

ومـا أنـا إلاّ مـن غـزيـةَ إنْ غـوتْ غـويـتُ وإنْ تـرشـدْ غـزيـةُ أرشـدِ

أي أنه مرتبط بعشيرته (غزية) في غيّها ورشدها، فإن ضلت ضل معها، وإن اهتدت اهتدي معها.

وإذا كانت الدولة لها رئيس أو ملك أو زعيم يتولى قيادة الأمور السياسية وغيرها. فإن للقبيلة رئيساً أو شيخاً يتزعمها ويتولى أمرها، ويتصف ـ في الغالب ـ بالخبرة والحنكة والحكمة وسداد الرأي، والشجاعة، والكرم، وإعانة الفقراء والمحتاجين، وهذه الصفات هي التي تؤهله لقيادة قبيلته وزعامتها، والتي بواسطتها يحوز رضا القبيلة وإعجابها، وهو الذي يتولى مهمة القيادة في

الحرب، ويقسم الغنائم، ويعقد الأحلاف والمعاهدات، ويتفاوض باسم القبيلة لفض الخصومات والنزاعات، ويستقبل وفود القبائل ويقوم بواجب الضيافة. على أنه لا ينفرد باتخاذ القرارات، وإنما يدعو سادة القوم والرجال البارزين للتشاور والتباحث في مختلف الشؤون التي تهمّ القبيلة لحادث مهم وأمر عظيم، وبذلك التشاور يقررون شن الحرب أو نشر السلم أو عقد الأحلاف مع القبائل الأخرى. وكانت القبائل الضعيفة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها تلجأ إلى عقد حلف مع قبيلة أو أكثر لتقف معها في وقت الشدة وتدافع عنها حين تتعرض لاعتداء من قبل إحدى القبائل الأخرى، ولهذا كثرت الأحلاف والمعاهدات التي كانت تعقد بين القبائل لنصرة بعضها البعض في أوقات الحروب، وما أكثر ما تقع تلك الحروب بين القبائل لأتفه الأسباب وقد تدوم سنين طويلة مثل حرب داحس والغبراء التي وقعت بين عبس وذبيان. وحرب البسوس التي وقعت بين بكر وتغلب ودامت أربعين سنة.

وغالباً ما تكون أسباب هذه الحروب أموراً تافهة مثل الخصومات على المراعي أو مواقع المياه أو بسبب سماع كلمة جارحة تخدش كبرياء العربي فتشتعل نار الحرب ولا تنطفىء إلا بعد أن يتدخل المصلحون.

وقد سميت هذه الحروب والوقائع أياماً، لأنها لم تكن متصلة ليل نهار، وإنما كانوا يتقاتلون نهاراً فإذا جاء الليل عاد كل منهم إلى موضعه فإذا حل نهار اليوم الثاني عادوا للقتال، وقد يتوقف القتال أياماً أو أشهراً ليعودوا بعدها أكثر تحفزاً وحماساً. وقد كانت هذه الأيام كثيرة حتى يقال إنها تجاوزت الألف. وكان يقال فيها شعر حماسي كثير يصف هولها ويطالب بالثأر ويفتخر بالنصر.

وكان الانتماء القبلي هو المسيطر على العرب آنذاك، إذ لم يبرز عندهم إنتماء آخر للأمة أو للجنس العربي إلا حينما يتعرض العرب لاعتداء خارجي من أمم أخرى كما حدث في موقعة ذي قار التي حدثت بين العرب والفرس.

وإذا ضعف هذا الانتماء القبلي او خرج الفرد على أعراف وتقاليد القبيلة

اضطرت القبيلة إلى اتخاذ قرار بطرده وخلعه وعدم الإعتراف به وعدم تحمل مسؤولية أفعاله وحينئذٍ يسمى هذا الفرد (الخليع) وهذا يُعدّ أشدّ عقوبة توجه للفرد ولهذا يتحاشى أفراد القبيلة ارتكاب أي فعل يسيء إلى سمعة القبيلة ويحاولون جاهدين المحافظة على مصلحة القبيلة وسمعتها وحقوقها.

2 ـ الحياة الاجتماعية:

اتصف العرب بروابط اجتماعية قوية شدّت أبناء القبيلة وصهرتهم في بوتقة واحدة، وكانت معظم القبائل تسكن في شبه الجزيرة العربية وهي صحراء واسعة مترامية الأطراف يندر فيها الماء ويقل فيها العشب على أن هناك بعض القبائل كانت تسكن في المدن والحواضر مثل اليمن والحجاز والعراق والشام، حيث كانت قريش تسكن في مكة، والأوس والخزرج في المدينة (يثرب) وثقيف في الطائف، ولخم وكندة وغيرهم في العراق، وجذام وكلب وقضاعة في الشام. وقد ازدهرت الحياة في المدن ونشطت فيها التجارة.

أما سكان البوادي والصحارى فكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر طلباً لمساقط المياه ومنابت الكلأ، وقد تكيفوا لذلك وتعوّدوا على الرحلة والتنقل، لذلك كانت مساهمتهم في الحضارة العربية قليلة لأن الحضارة تحتاج إلى استقرار وثبات في المكان ليبدأ العمران وتبدأ معه الحضارة.

وكانت القبائل في ذلك العصر تتكون من ثلاث فئات:

الفئة الأولى:

أبناء القبيلة الخُلّص ، فأبناء القبيلة هم المنحدرون من أصل القبيلة نسباً ودماً وهم السند الذي يحمي القبيلة ويذود عنها.

الفئة الثانية:

الموالي، وهم الذين يلتحقون بالقبيلة بسبب الجوار أو الحلف، وهو أن يحتمي أفراد القبيلة بقبيلة أخرى غير قبيلتهم أو بفرد من أبنائها بسبب الخوف أو

الخلع أو ما أشبه. ومكانة هؤلاء الموالي أقل من أبناء القبيلة، كما أن حفوفهم لا ترقى إلى مرتبة حقوق أبناء القبيلة الأصليين.

الفئة الثالثة:

العبيد والإماء وغالباً ما يكون هؤلاء أسرى الحروب والذين يؤخذون في السبي بعد أن تهزم قبيلتهم. وقد يكون بعضهم من الرقيق المجلوب من الحبشة وما جاورها. وكانوا في منزلة دانية وتسند إليهم الأعمال الشاقة، كما كانوا يقومون بخدمة السادة والسيدات.

وجميع أبناء العشيرة من هذه الفئات الثلاث يدينون بالولاء والطاعة للقبيلة وتقديم مصلحتها على مصالحهم الشخصية.

وقد اشتهر العرب قديماً وما زالوا بصفات طيبة حميدة منها: الأمانة والوفاء والكرم والشجاعة وحماية الجار وإغاثة الملفوف ونصرة الضعيف، ويبدو أن البيئة التي عاشوا فيها قد ساعدت على غرس مثل هذه الفضائل في نفوسهم حتى توارثوها وأخذت تتنقل من جيل إلى جيل، وسنتناول بالحديث أشهر هذه الصفات:

أ ــ الكرم:

لعل خصلة الكرم من أكثر الخصال التي برزت عند العرب، ولا يُعرف أمة من الأمم اشتهرت بهذه الخصلة كما اشتهر بها العرب، وما زالوا معروفين بها حتى يومنا هذا وأن ضعفت شيئاً ما، لاسيما عند سكان المدن. ويرى البعض أن سبب اتصاف العرب بالكرم هو البيئة والظروف التي عاشوا فيها، فقد كانت صحراؤهم قاحلة مجدبة يقل فيها الماء والطعام مما يدفع بالغني إلى أن يجود بماله ويكرم الضيوف والمسافرين والمحتاجين، ويقدّم لمن ينزل بداره خير ما عنده من طعام بعد أن يستقبله بالبِشر والتهليل والترحيب.

ومن شدّة كرمهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً على مكان مرتفع ليهتدي إليهم الضالون والتائهون في تلك الفيافي الشاسعة والقفار الموهشة. حتى

أصبحت هذه الظاهرة مجالاً للفخر والإعتزاز، يقول عوف بي الأحوص: [1]

ومستنبحٍ يخشى القواء ودونَهُ من الليلِ بابا ظلمةٍ وسُتورُها[2]

رفعت له ناري فلما اهتدى بها زجرتُ كلابي أن يَهِرَّ عَقُورُها

كما افتخروا بأن كلابهم أصبحت جبانة فهي لا تنبح على أحد وذلك لكثرة ما يرتاد بيتهم من ضيوف حتى اعتادت ذلك. وهذا ما أشار إليه حاتم الطائي الذي ضُرب به المثل في الكرم والذي يعد واحداً من المشهورين بكثرة كرمهم يقول[3]:

اذا ما بخيلُ الناسِ هرّت كلابُه وشق على الضيف الغريب عقورها[4]

فإنّي جبانُ الكلبِ بيتي موَطّأ جوادٌ إذا ما النفسُ شحَّ ضميرُها

ويحرص على الإتصاف بالكرم كل فرد في القبيلة سواء كان سيداً أم خليعاً وصعلوكاً أم عبداً، كما يحرص على ذلك ابن البادية والصحراء وابن المدينة. ولهذا فقد أصبحت أخبار الكرم والكرماء تتناقل في كل مجلس وأصبح الكرم موضوعاً خصباً للشعراء في فخرهم وفي مدحهم أيضاً.

ب ـ الشجاعة:

وقد تكون هذه الصفة موازية لصفة الكرم في حرص العرب على الإتصاف بها، وقد غُرست فيهم بسبب بيئتهم القاسية وما فيها من حيوان مفترس أو عدو متربص. وبسبب حروبهم الكثيرة الدائرة فيما بينهم، وقد تُنمّى هذه الصفة في الفرد منذ صغره لكي تكبر معه اذا كبر ليستطيع الدفاع عن نفسه وعن قبيلته في الحروب وفي غير الحروب. علماً أن حروبهم تنشب وتستعر لأمور ذات شأن أو لأمور تافهة. فقد تنشب على شرف أو أرض أو دماء أو على طلب ثأر أو على

(1) المفضليات رقم 36 ص176.

(2) مستنبح: من ينبح كالكلاب حتى تسمعه وترد عليه، القواء: الفلاة الموحشة.

(3) الحيوان ـ الجاحظ 1/ 383.

(4) هرّت: الهرير: صوت دون النباح، عقورها: هو الذي يعقر أي يعظ ويجرح.

رد إهانة أو كلمة جارحة، فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم لهذه الإهانة التي تجعل الدم يغلي في عروقهم فيندفعون بكل شجاعة وبسالة لرد هذا الهوان. كما فعل الشاعر عمرو بن كلثوم حينما علم بإهانة أم الملك عمرو بن هند لأمه في بلاطه فثار عليه واستل سيفه وقتله في بلاطه، وظل شعراء تغلب وبنوها يتغنون بهذا الحادث زمناً طويلاً مفاخرين متباهين.

وإذا استنجد بهم أحد أبناء قبيلتهم هبّوا لنصرته والدفاع عنه دون أن يعرفوا السبب أو من المعتدي ومن المعتدى عليه، وفي تصوير ذلك يقول الشاعر قريط ابن أنيف[1]:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حينَ يندبهمْ ... في النائبات على ما قال برهانا

وممن اشتهر بالشجاعة والفروسية والبطولة الشاعر عنترة بن شداد العبسي الذي ضرب أروع الأمثلة في ذلك حتى أصبح أسطورة تروى وأضيفت إلى حياته وبطولاته كثير من القصص والأخبار ليغدو الصورة المثلى للشجاعة في أذهان الناس. وقد افتخر عنترة بهذه البطولة في مواضع عدة من شعره، من ذلك قوله في معلقته مخاطباً ابنة عمه عبلة[2]:

هلاّ سألت الخيل ياابنة مالك ... إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

إذ لا أزال على رحالة سابحٍ ... نهد تعاوره الكماة مثلّم[3]

طوراً يُجردُ للطعانِ وتارةٍ ... يأوي إلى حصد القسيّ عرمرمِ[4]

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم

---

(1) شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي 1/ 27.

(2) ديوان عنترة ص 207 ـ 209 ت محمد سعيد مولوي ـ دمشق 1970 وجمهرة أشعار العرب ـ القرشي ص166 دار صادر ـ بيروت.

(3) رحالة: هو الرحل أي السرج، سابح: فرس سريع العدو.
نهد: غليظ، الكماة: جمع كمي وهو الشجاع.

(4) القسي: جيش كثير القسي، عرمرم: شديد.

ومـدجـج كـره الـكـمـاة نـزالـه لا مـمـعـن هـربـاً ولا مـسـتـسـلـم[1]
جـادت يـداي لـه بـعـاجـل طـعـنـةٍ بـمـثـقـف صـدق الـكـعـوب مقـوم[2]

أنه يتغنى بقوته وشجاعته وبلائه في المعارك والحروب، وعلى شاكلته كثير من الشعراء والفرسان الذين يرون أن القوة والبطولة هي سبيل الحياة الكريمة، ولذلك فانهم كاموا يتمنون الموت في ساحات الوغى وفي حومة المعارك لأن ذلك يزيدهم شرفاً ورفعة، أما انقضاء الأجل على فراش الموت فلا فخر فيه لأنه ليس دليل شجاعة وبطولة.

ج ـ الوفاء بالعهد:

كان العرب يقدّرون خصلة الوفاء تقديراً كبيراً فإذا وعد أحدهم وعداً وفّى به مهما كلّفه ذلك من ثمن، وكانت القبيلة تقف معه وتساعده للوفاء بهذا الوعد. ونتج عن ذلك أنهم إذا استجار بهم جارهم وأعطوه عهداً حرصوا على تنفيذ ذلك العهد بحماية جارهم ونصرته، وقد سئل أعرابي عن مبلغ حفاظ قومه فقال: «يدفع الرجل منّا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه»[3].

وقد بلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أنهم كانوا ينبذون من يغدر بعهد وكانوا يرفعون له لواء في مجامعهم وأسواقهم لكي يكون سبُّة وعاراً بين قومه، يقول الحادرة مخاطباً سميّة[4]:

اسُمّى ـ ويحك ـ هل سمعت بغدرةٍ رُفِـعَ الـلـواء لـنـا بـهـا فـي مـجـمـع

فهو يفتخر بأنه وفيّ ويلتزم بعهده وكلامه، ولهذا لم يرفع له لواء غدر في مجمع قومه.

---

(1) مدجج: الذي قد توارى بالسلاح.

(2) مثقف: رمح، صدق: صلب، الكعوب: عقد الأنابيب، مقوّم: قوّم من الاعوجاج أي مستقيم.

(3) العقد الفريد 1/ 105.

(4) المفضليات ص45.

هذا وكانت هناك مجموعة أخرى من الصفات الحميدة حرص العرب على الإتصاف بها بل وتفاخروا بها وهي صفات خير ومكارم تزيدهم عزة وإباء. ومن هذه الصفات: إغاثة الملهوف ومساعدة الضعيف والأنفة وإباء الضيم والعفو عند المقدرة، وغبرها من الصفات الجيدة. ولعل سادة القبائل وشيوخها كانوا أكثر الناس التزاماً بهذه الصفات، إذ أن مثل هذه الصفات هى التي تؤهلهم للسيادة.

وما دمنا نتحدث عن العادات الاجتماعية والتقاليد والأعراف التي كانت سائدة في المجتمع العربي قبل البعثة، فلا بد من التطرق إلى بعض العادات السيئة التي كانت في ذلك المجتمع بعد أن أسهبنا في الحديث عن العادات الحسنة وانتشارها بين أفراد القبائل . ذلك أن جميع المجتمعات في العالم وفي مختلف العصور فيها عادات جيدة وعادات قبيحة، وتحديد حسنها وقبحها يعود إلى طبيعة المجتمع وما تعارف عليه.

أما بالنسبة للمجتمع العربي في ذلك العصر فإن أكثر ما كان يشيع فيه من آفات لايقرها ذلك المجتمع هي معاقرة الخمر ولعب القمار، فالخمر عندهم من أهم متع الحياة وقد تحدث الشعراء عنها كثيراً وأقاموا لها المجالس وأشركوا فيها الندمان وعزفت فيها القيان ورقصت فيها الجواري، ويبدو أنهم كانوا يفتخرون بذلك، لأن الفقير لا يستطيع تعاطيها وإقامة مثل هذه المجالس لها، يقول حسان ابن ثابت مفتخراً بشربها[1]:

ونشربها فتتركنا ملوكاً   وأُسداً ما ينهنهنا اللقاءُ

وكان اليهود والنصارى يتاجرون بالخمر ويجلبونها من أماكن بعيدة. على أن بعض الشباب كان يدمن عليها ويسرف في تعاطيها وربما ينفق أمواله عليها مثلما حدث لطرفة بن العبد الذي قال في معلقته[2]:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي   وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

---

(1) ديوان حسان 1/ 17 ت ـ وليد عرفات ـ لبنان.

(2) شرح القصائد العشر ـ التبريزي ص101. وجمهرة أشعار العرب ـ القرشي ص155.

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

فقد ظل يتعاطى الخمر حتى أنفق عليها ما اكتسبه من أموال حديثة وقديمة فتحامته قبيلته وأفردته كما يفرد البعير الأجرب.

أما لعب القمار والميسر فقد كان الفتيان يفخرون بأنهم يتعاطونه، وصورة الميسر عندهم أنهم كانوا يذبحون ناقة أوبعيراً ثم يقسّمون الذبيحة عشرة أجزاء ويأخذون أحد عشر قدحاً لسبعة منها نصيب إذا فازت، أما الأربعة الباقية فلا حظّ لها.

ولما جاء الإسلام حرّم هاتين الآفتين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية: 91]

أما بالنسبة للمرأة ومكانتها في المجتمع الجاهلي فقد كان هناك نوعان من النساء: الحرات والإماء:

أ ـ الحُرّات:

كان للمرأة الحرة منزلة رفيعة سامية في نفوس العرب، وكانت تشارك الرجل في كثير من الأعمال، وتخرج معه إلى القتال لتهيء النبال وتسقيهم الماء وتضمد الجرحى، وتنشد الأناشيد الحماسية لتدفع الرجال إلى الثبات في ساحة المعركة، كما أن الرجال لا يفرون من المعركة إذا رأوا النساء لئلا يقلن عنهم جبناء فيسقطوا في نظرهن، وإذا قتل أحد الفرسان في المعركة ندبنه بحرارة وألم داعيات إلى الأخذ بثأره والانتقام من قتلته، ومن أمثلتهم هند بنت عتبة والخنساء، كما كن يقمن بالتجارة لأنفسهن ويستأجرن الرجال لذلك، مثل خديجة بنت خويلد الأسدي حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وقبل الزواج بها يذهب بتجارتها إلى الشام.

وكانت الأعمال التي تسند إلى المرأة كثيرة ومهمة، منها تربية الأولاد

والعناية بهم، وطهي الطعام، وتصليح الخيام، ونسج الثياب، وحلب اللبن ومساعدة الرجل في الزراعة.

أما إذا كانت المرأة من الشريفات الموسرات فإنها لا تمارس هذه الأعمال إنما تتولاها الجواري حيث يقمن بهذه الأعمال بالإضافة إلى خدمة السادة والسيدات الشريفات.

وقد يكون للمرأة الشريفة رأي في اختيار الزوج مثل سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني عدي النجار.

أمّا نظرة الرجل إلى المرأة الحرة فكانت نظرة تقدير وإعجاب ومحبة، فهي سيدة البيت ومدبرة شؤون المنزل، وهي الأم والأخت والحبيبة، وحينما يناديها الزوج أو يطلب منها القيام بعمل فإنه يناديها بأحب الألقاب إلى نفسها، قال أحد الشعراء مخاطباً زوجته:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا

وقد استحوذت المرأة في ذلك العصر على كثير من شعر الشعراء لا سيما في مطالع قصائدهم حيث افتتحوها بالغزل وذكر المرأة، مثل قول امرىء القيس في مطلع معلقته:

قفا نبكِ من ذكر حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول طرفة بن العبد:

لخولة أطلال ببرقة شهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

إلى كثير من القصائد التي كانت مقدماتها تتحدث عن المرأة والتغزل بها والإشادة بصفاتها ومحاسنها.

ب ـ الإماء:

وهن دون منزلة الحرّات، وهن إمّا سبايا يؤخذن قسراً في حرب أو غارة، وإما غير عربيات يشترين بالمال. ومنهن الجواري والقيان اللواتي يعملن في حوانيت الخمارين، يضربن على الآلات الموسيقية (المزهر) أو يغنين ويرقصن.

وتقوم الجواري بخدمة الشريفات كما يحملن عنهن عبء أعمال البيت وقد يرعين الإبل والأغنام.

وقد وجدت عند بعض القبائل عادة وأد البنات أي دفن البنت وهو حية، والذي دفعهم إلى ذلك خوفهم من عار سبيهن إذا كبرن، حيث أن كثرة الحروب والغارات تعرض القبائل المنهزمة في المعركة إلى شن حملة لسبي نسائهم، وهذا السبي عار ما فوقه عار، فهم يتحملون المخاطر والمشاق من أجل استرجاع نسائهم السبيات حتى وان ضحوا بدمائهم.

والدافع الآخر الذي يلجؤهم إلى الوأد هو خوفهم من الفقر والجوع الذي يلحق القبيلة في سنين القحط والجدب، قال تعالى مشيراً إلى ذلك: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [سورة الإسراء، الآية: 31].

ولا بد لنا من الإشارة إلى أن هذه العادة كانت في أضيق نطاق وكانت محصورة في بطون بعض القبائل، ولم تكن ظاهرة منتشرة عند كل القبائل وحينما جاء الإسلام حرّم هذه العادة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [سورة النحل، الآيتان: 58 و59].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [سورة التكوير، الآية: 8 و9] حينئذٍ أقلع العرب عن هذه العادة وندموا على ما فعلوا قبل نزول الوحي.

ولم يقتصر تكريم الإسلام للمرأة على تحريم الوأد، وإنما شمل أموراً عدة منها تحريم منع المرأة من الزواج بعد وفاة زوجها، وعدم الجمع بين الأختين، وتحريم زواج الابن من امرأة أبيه بعد موته، إلى غير ذلك من الأمور التي زادت مكانة المرأة رفعة.

3 ـ الحياة الدينية:

لم يكن للعرب قبل البعثة دين واحد يدينون به، وإنما كانت هناك

مجموعة من الديانات والمعتقدات بعضها سماوي والبعض الآخر عادات انتشرت بين القبائل العربية فاتخذوها ديناً لهم. على أن هناك من يقول[1]، أن العرب في ذلك العصر كانوا يؤمنون بالله الواحد الخالق القادر الذي بيده الأمر، ولكن طريقة عبادتهم لله اختلفت وتنوعت، وكانوا يتخذون في هذه العبادات أساليب مختلفة، ووسائل توصلهم ـ في زعمهم ـ إلى عبادة الله الواحد، وسنعرض لأهم الديانات والعبادات التي كانت منتشرة بين العرب.

أ ـ الوثنية:

وكانت أكثر الديانات شيوعاً وانتشاراً في الجزيرة العربية، حيث كان بعض العرب يشركون مع الله آلهة أخرى في عباداتهم، صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهتهم، وقد يتخذون من بعض الأشجار والأحجار ما يرمز إلى هذه الآلهة.

وكانت مكة مقراً للكثير من أصنامهم نظراً لمكانتهاالدينية في نفوسهم، ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول ﷺ لمكة ثلاثمائة وستون صنماً.[2] وكان لكل قبيلة صنم أو أكثر من هذه الأصنام، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر لبعض هذه الأصنام، قال تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح، الآية: 32] وقال جلّ شأنه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [سورة النجم، الآيتان: 19 و20] فقد ورد في هاتين الآيتين ذكر ثمانية من أصنامهم وهي:

1 ـ (ود) كان صنمه بدومة الجندل وظل منصوباً إلى مجيء الإسلام.

2 ـ (سواع): صنم هذيل وكنانة، وهو حجر كانوا يعبدونه كما تعبده عشائر كثيرة من مضر.

3 ـ (يغوث): صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن.

---

(1) ينظر: تاريخ العرب قبل الإسلام ـ جواد علي 5/ 20 وما بعدها.

(2) العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف 91 ط5 سنة 1971.

4 ـ (يعوق): صنم همدان وخولان.

5 ـ (نسر): معبود حمير وأهل الشمال، ويروى أن «ود على صورة رجل، وسواع: على صورة امرأة» ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس[1].

6 ـ (اللات): كان معبدها في الطائف وهي صخرة مربعة بنت عليها ثقيف بيتاً. وكانت عبادة اللات شائعة بين العرب الجنوبيين وفي الحجاز.

7 ـ (العُزى): وهي شجرة بوادي نخلة شرقي مكة وكانت لغطفان. وفي الأسلام قطعها خالد بن الوليد وهو يقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك إنّي رأيتُ الله قد أهانك

8 ـ (مناة): وهي صخرة منصوبة على ساحل البحر بين مكة والمدينة وكان يتعبدها العرب جميعاً لا سيما هُذيل وخُزاعة والأوس والخزرج[2].

وهناك أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش وغيرها من القبائل العربية ويبدو أن عبادتهم للأصنام والأوثان لم تكن على أساس أنها هي الآلهة الخالقة للعالم، وإنما يعبدونها على أنها رموز للآلهة أو على أنها واسطة بينهم وبين الإله الواحد الخالق الذي بيده الخير، ودليل ذلك ما ورد في القرآن الكريم من تعليل المشركين لعبادة الأصنام: ﴿أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٣] أي درجة أو منزلة وكأنهم لا يستطيعون عبادة الله مباشرة فاّتخذوا هذه الأصنام وسيلة لتقربهم إلى الله، لذلك أخبرهم الرسول الكريم بقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس، الآية: 18] فتبين لهم أن هذه الأصنام لا تفيدهم شيئاً وأن العبادة لا تحتاج إلى شفاعة الأصنام، وإنما تكون خالصة لوجهه تعالى.

---

(1) ينظر: تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير ج4 ـ ص253 و426.

(2) ينظر كتاب الأصنام لابن الكلبي.

ب ـ الحنيفية:

وهي فكرة توحيد الإله التي جاء بها إبراهيم عليه السلام، وأتباعه هم الحنفاء، ومعنى الحنيف المائل عن دين آبائه، ولا علاقة لهؤلاء باليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [سورة آل عمران، الآية: 76]. والمعروف أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام فلما شبّ ابراهيم لم يقتنع بهذه العبادة وحطّم أصنامهم ثم هداه الله إلى عبادته وحده سبحانه وتعالى ونبذ عبادة الشرك والأصنام. وبهذا تلتقي الحنيفية مع الإسلام دين النبي محمد ﷺ في التوحيد والإيمان بالله الواحد الخالق القادر وإخلاص النية والعبادة له.

ومن المعلوم أن إبراهيم هو الذي رفع قواعد البيت الحرام مع ابنه إسماعيل وهذا يعني أن ملّة إبراهيم الذين كانوا يدينون بالتوحيد كان أكثرهم في مكة، ثم انتشر قسم منهم في القبائل وقد عُرفوا واشتهروا وأصبحت لهم منزلة عالية في قومهم، وأشهر هؤلاء قُس بن ساعدة الإيادي الذي كان من خطباء عكاظ المشهورين ومن أهل الحكمة فيهم، وأبو ذر الغفاري الذي اعتنق الإسلام وأصبح من الصحابة المقربين، وأمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر المعروف، وعامر بن الظرب العدواني، وغيرهم كثير.

ج ـ اليهودية:

انتشر اليهود في اليمن والحجاز بعد أن طردهم قياصرة الروم فهاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة، وقد استطاع اليهود في اليمن أن يؤثروا في أحد ملوك التبابعة وهو ذو نواس وأن يدخلوه في دينهم، ودفعوه إلى التنكيل بنصارى نجران فقتلوهم حرقاً في الأخدود الذي حفروه لهم، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سورة البروج، الآيات: 4 ـ 8] ونتيجة هذا العمل المريع هبّ أهل الحبشة النصارى لكي يثأروا

لإخوانهم فاستطاعوا القضاء على ذي نواس سنة 525م وكسر شوكة اليهود في اليمن. ومن أشهر يهود اليمن كعب الأحبار ووهب بن منبه وقد دخلا في الدين الإسلامي بعد البعثة النبوية الشريفة.

أما القبائل اليهودية الأخرى فقد توزعت في بعض مناطق الجزيرة العربية، حيث نزلت في الحجاز قبائل عدة من اليهود، ففي يثرب نزل بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وبنو بهدل وقد نزل بينهم الأوس والخزرج. كما انتشر بعض اليهود في خيبر ووادي القرى وتيماء، وكانوا يشتغلون بالزراعة والحدادة وصناعة الأسلحة والصياغة ونسج الأقمشة وكان منهم الشاعر السموأل بن عادياء.

د ـ النصرانية:

وقد اعتنقها عدد من القبائل العربية، ففي الشام كانت قبيلة كلب وقضاعة وعاملة وجذام تدين بالنصرانية، وفي العراق قبائل بكر وتغلب وإياد، حتى وصلت الحيرة عاصمة المناذرة حيث اعتنقها العباديون، وفي مكة كان الرقيق المجلوب من الحبشة، ويقال أنه كان بها جالية من الروم النصارى. وزُعم أن قوماً من قريش تنصّروا مثل ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعتبة بن أبي لهب، وقد يكون في المدينة قلّة قليلة من النصارى.

وقد انتشرت النصرانية في طيء ودومة الجندل وكذلك في اليمن حيث بدأت فيها منذ القرن الرابع الميلادي وتركزت في نجران وبنيت فيها أشهر كنيسة، ويقال إن إبرهة الحبشي أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن وإنه اهتم بزينتها وزخرفتها.

وأشهر شاعر نصراني ظهر في تلك الفترة هوعدي بن زيد العبادي وكان مترجماً لكسرى ورسوله إلى النعمان بن المنذر في الحيرة وتظهر في شعره بعض الألفاظ التي لها علاقة بالنصرانية، مثل قوله:

سعى الأعداء لا يألون جهداً   عليَّ وربّ مكةَ والصليب

فقد ذكر الصليب وإن كان قد قرنه بذكر مكة. ومن الذين وردت في

أشعارهم ألفاظ لها صلة بالنصرانية امرؤ القيس والمرقش الأكبر والنابغة الذبياني والأعشى.

هـ ــ عبادة الكواكب:

وقد ظهرت عند بعض القبائل مثل كنانة التي كانت تعبد القمر، وعبدت جماعة من قريش وخزاعة ولخم نجم (الشعرى). وقد عُبدت الشمس في اليمن كما ذكر عن بلقيس ملكة سبأ حيث ورد في القرآن الكريم على لسان الهدهد ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النمل، الآية: 24]. ويقال إن عبادة الكواكب انتقلت إلى العرب من الكلدانيين والصابئة ومن جنوب الجزيرة العربية.

و ــ المجوسية:

وكانت موجودة في تميم وعُمان والبحرين وبعض القبائل العربية، ويقال إنها دخلت إلى العراق عن طريق الحيرة ثم انتقلت إلى الأماكن الأخرى. وفكرة المجوسية تقوم على الثنوية أي الإيمان بإلهين يدبران العالم هما: إله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة.

4 ــ الحياة الإقتصادية:

تختلف طبيعة الجزيرة العربية بين منطقة وأخرى، فهناك أماكن صالحة للزراعة مثل جنوب الجزيرة وشرقها، وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر، وفي الطائف ووادي القرى. وكان أهل هذه المناطق يتخذون الزراعة وسيلة لمعيشتهم، وكانت تكثر في هذه الأماكن الزروع والثمار وبعض الفواكه، وكانت النخلة أهم الأشجار في الجزيرة كلها، واشتهرت الطائف بالكروم.

أما مكة فلم تكن صالحة للزراعة لأنها منطقة جبلية صخرية يقلّ فيها الماء، وقد ورد في القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام خاطب ربه قائلاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [سورة إبراهيم،

الآية: 37] ويقصد بالوادي مكة، ولذلك فقد اعتمد أهل مكة على التجارة، وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالاً وجنوباً في طرق معلومة، وكانت لهم رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ* إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [سورة قريش، الآيتان: 1 و2] كما كانت لهم رحلات تجارية إلى الشرق عن طريق الخليج العربي لتذهب إلى الهند وغيرها من دول الشرق.

وكان في مكة الكعبة وهي أكبر معابد العرب في ذلك الوقت، فكانوا يحجون إلى أصنامهم فيها، وكانت قريش تقيم لهم المواسم والأعياد والأسواق الكبيرة وأشهرها سوق عكاظ وكانوا يقيمونها في نجد بالقرب من عرفات، ولم تكن هذه الأسواق سوق تجارة فحسب. بل كانت سوقاً للخطابة والشعر وفض الخصومات والمنازعات، وكان يؤمها العرب من مختلف بقاع الجزيرة ليشهدوا منافع لهم من عبادة وتجارة وصلح.

أما باقي مناطق الجزيرة مثل نجد وتهامة والدهناء وبادية الشام والبحرين فقد كان العرب يعيشون فيها معيشة بدوية تعتمد على رعي الإبل والأغنام وكانت حياتهم بسيطة ينعمون فيها بالحرية ولا يحجبهم عن ظواهر بيئتهم شيء. وكان طعامهم بسيطاً لا يعدو التمر واللبن وما يتيسر لهم في باديتهم، وكثيراً ما اعتمدوا على صيد الحيوانات التي كانوا يتخذون من لحومها غذاءً لهم، وقد أولع كثير منهم بالصيد وأخذوا يدربون الكلاب حتى تنشب بينها وبين طريدتها معارك حامية وقد صوّر بعض الشعراء هذه المعارك في شعرهم أبدع تصوير، حيث ذكروا طريقة خروجهم للصيد وكيف كانوا يكمنون له ويصطادونه أو كيف كانوا يرسلون كلابهم إليه فتنشب معركة بين كلاب الصيد والفريسة قد تؤدي إلى قتل كلب الصيد.

أما لباسهم فكان بسيطاً مثل طعامهم، وهو ـ في الغالب ـ ثوب طويل فوقه عباءة وغطاء للرأس يقيهم حرارة الشمس ولفح ريح السموم.

وهكذا يظهر لنا أن حالة العرب الإقتصادية تختلف من منطقة إلى أخرى، فكان فيهم السيد الشريف الثري الغني الذي ينفق فيسرف في الإنفاق، ويكرم فيبالغ في الكرم، وكان فيهم الفقير المعدم والصعلوك المشرد الذي لا يجد قوت يومه ولا ما يسدّ به رمقه حتى تحوّل كثير من هؤلاء إلى مجموعة من الشعراء عرفوا ب(الشعراء الصعاليك) ومنهم عروة بن الورد وتأبط شراً والشنفرى وغيرهم. وقد ظهرت حالة الصعلكة نتيجة للتفاوت الإقتصادي بين الأغنياء والفقراء. على أن هؤلاء الصعاليك كانوا يجدون في صيد الحيوان ما يفي بحاجتهم الغذائية.

أيام العرب قبل الإسلام

اتسمت الحياة القبلية التي عاشها العرب فبل العثة بكثرة الحروب، وهي حروب شديدة قاسية كانت تأكل الأخضر واليابس، أما أسبابها فكانت كثيرة ومتعددة، منها ماهو بسيط تافه، ومنها ماهو في غاية الأهمية بالنسبة لهم، فقد تنشأ بسبب اختلاف على حدّ من الحدود، أو بسبب أرض أو مياه أو بسبب إهانة تلحق بعض الأشخاص أو بسبب قتل.

ويكفي أن نذكر سبب اندلاع أشهر حربين هما حرب البسوس وحرب داحس والغبراء، أما حرب البسوس فقد دارت رحاها بين قبيلتي بكر وتغلب على ناقة البسوس وهى خالة جساس بن مرة سيد بني بكر، إذ وجدها كليب ترعى في أرضه فرمى ضرعها بسهم فاختلط لبنها بدمها، فجاءت البسوس مستغيثة بابن اختها جساس فهاج وماج ولما سنحت له فرصة من كليب قتله، وكان كليب زوج أخت جساس. وكان قتل كليب الشرارة الأولى التي ألهبت نار الحرب بين بكر وتغلب ودامت زمناً طويلاً يقال أنها ظلت أربعين سنة.

وأما حرب داحس والغبراء فكانت قريبة العهد بالإسلام حيث نشبت في أواخر عصر ما قبل البعثة بين قبيلتي عبس وذبيان، وحدثت بسبب سباق بين الفرس داحس والفرس الغبراء، وأوشك داحس أن يفوز وهو لقيس بن زهير من

قبيلة عبس، ولكن رجلاً من ذبيان اعترض الفرس ونفّره فعدل عن الطريق وسبقته الغبراء، فأحسّ قيس بهذه الخدعة ولم يعترف بهذا السبق وطالبهم بإعطاء الرهان المضروب، فأبوا ذلك، وحدث صدام بينهما حتى تطور فأشعل فتيل الحرب، وظلت سنوات طويلة، وبعدها قام سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف بالصلح بين القبيلتين وتحملا ديات القتلى، فراح زهير ابن أبي سلمى يمدحهما ويثني على صنيعهما، ومن أبطال هذه الحرب الشاعر الفارس عنترة بن شداد العبسي.

ونتيجة لكثرة الحروب الدائرة بين العرب فقد تولدت عندهم عادة الأخذ بالثأر حتى أصبحت شبه قانون يلتزم به جميع أفراد القبيلة، حتى قالوا: إن الرجل إذا قتل ولم يؤخذ بثأره خرج من رسه طير يسمى (الهامة) يقف على قبره ويصيح (اسقوني اسقوني) ولا يسكت حتى يؤخذ بثأر ذلك القتيل، وهم قبل أن يأخذوا بثأرهم يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب وباقي ملذات الحياة ولا يعودون إلى تعاطي هذه الأمور حتى يثأروا لقتلاهم،

وكانوا لايقبلون بأخذ الدية عن القتيل، لأنهم يعدّون ذلك عاراً وذلاًّ، فهم لايشفون غليلهم إلاّ بسفك دم القاتل، وكان من نتيجة هذه الحروب الكثيرة لجوء القبائل إلى عقد الأحلاف والمعاهدات والمواثيق بين قبيلتين أو أكثر، وذلك ضماناً لأمنها ضد أي اعتداء يلحق بها من قبيلة أخرى، كما انها سند للقبائل المتحالفة وقوة لها حينما تدفعها الظروف إلى خوض حرب مع قبيلة أو قبائل أخرى. وهذا ما نراه في العصر الحديث بين الدول لا بين القبائل، وإذا استغاث أحد أفراد القبيلة أو طلب النجدة هبّ أفراد قبيلته لنصرته دون أن يعرفوا لذلك سبباً، حتى أصبح مثلهم الذي يتردد على كل لسان (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) وإلى ذلك يشير الشاعر قريط بن أنيف بقوله[1]:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

(1) شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي 1/ 27.

وقد أورثتهم هذه الحروب القوة وغرست فيهم الشجاعة حتى أصبحت سمة من سمات العرب يمدح بها الشعراء ويتغنى بها الفرسان. فأصبح من دواعي الفخر والبطولة أن يقتل الرجل في ساحة المعركة مقبلاً غير مدبر، أما موت الرجل حتف أنفه بعيداً عن ميادين القتال فكانوا يأنفون منه ويرهبونه ولا يرون فيه مجداً ولا بطولة، بل الشرف والبطولة في حومة الوغى وساحة المعركة.

يقول الشنفري أحد الشعراء الصعاليك في ذلك[1]:

ولا تـقـبـرونـي أن قـبـري مـحـرّمٌ　　　عـلـيـكـم ولـكـن أبـشـري أمَّ عـامـرِ

فهو لا يريد أن تنتهي حياته على فراش الموت ويدفن في قبر بل يريد أن يقتل في ميدات القتال ولا يدفن بل تأكل الضباع جسده هي وغيرها من الحيوانات والكواسر المفترسة.

وسميت الحروب والمعارك أياماً، وذلك لأن هذه الحروب لم تكن متواصلة طيلة الليل والنهار مثل الحروب الحديثة، بل كانوا يتحاربون نهاراً فإذا جاء الليل وقف القتال وذهب المتحاربون إلى مواضعهم حتى يحل نهار اليوم التالي.

والحرب الواحدة فيها أيام كثيرة أي معارك كثيرة، وقد تسمى هذه المعارك أو الأيام بأسماء الأماكن أو الآبار التي نشبت بقربها تلك المعارك مثل عين أباغ التي كانت بين المناذرة والغساسنة، ويوم ذي قار بين قبيلة بكر والفرس.

وقد تسمى بأسماء الأسباب التي أدت إلى إشتعالها مثل حرب البسوس وداحس والغبراء. وقد كثرت أيامهم حتى تجاوزت الألف، وقد ورد ذكر بعضها في كتب الأدب والتأريخ والأمثال.

---

(1) شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي 2/ 487.

وقد قيل في هذه المعارك والأيام شعر كثير صوّر هول تلك المعارك وطالب بالثأر وتوعد الخصوم وتغنّى بالنصر.

أسواق العرب قبل الإسلام

تعددت مناحي الحياة الإقتصادية في ذلك العصر، منها ما كان يمارسه العرب في بعض المناطق متن الزراعة ورعي الإبل والأغنام وصناعة الأسلحة والسيوف وبعض المعدات، وما كانوا يقومون به من تجارة مع دول أخرى على قوافل تجوب الجزيرة العربية حيث كانوا يقيمون أسواقاً في مناطق متعددة من شبه الجزيرة العربية حيث كانت بعض القبائل تقيم أسواقاً خاصة بها في أوقات معينة من السنة، وإلى جانب هذه الأسواق الخاصة كانت هناك أسواق عامة تقام في أماكن مشهورة ويفد إلى هذه الأسواق رجال من مختلف القبائل ومن أصقاع بعيدة. وتعقد هذه الأسواق العامة في وقت معين من الأشهر الحرم التي لا يجوز القتال فيها وذلك لكي لا يتعرض رواد هذه الأسواق إلى إعتداء من قبل الخصوم والأعداء.

ولم تكن هذه الأسواق تجارية فقط، وإنما كانت شاملة، بمعنى أنها متعددة النشاطات ، حيث يتم فيها البيع والشراء والتبادل التجاري، ويتم فيها أيضاً عقد المفاوضات والأحلاف. وفض الخصومات والمنازعات، كما يتم إعلان الهدنة أو انتهاء الحرب ونشر السلم، وبالإضافة إلى هذه النشاطات المختلفة كانت هذه الأسواق محافل أدبية مفتوحة يحضرها من يشاء من الناس ليساهم فيها بما لديه من خطب وما يقال من مواعظ وحكم، فكانت شبيهة بالمنتديات الأدبية والمجامع اللغوية في عصرنا الحاضر، حيث كانت هذه الأسواق أحد الأسباب التي ساعدت على تهذيب اللغة وتوحيد لغة الشعر والخطابة بين جميع القبائل فكانت هي السائدة وهي التي يتقنها الناس مهما اختلفت قبائلهم وتباعدت مساكنهم، ولهذا نزل القرآن الكريم بها لأنها واضحة ومفهومة لدى جميع القبائل العربية.

وكانت الأسواق منتشرة في مختلف أصقاع الجزيرة، حيث كانت سوق الحجر باليمامة وسوق دومة الجندل في شمالي نجد وسوق الحيرة وسوق صنعاء وعدن ونجران وحضرموت وسوق صحار ودبا بعمان وسوق خيبر والمشقّر وغيرها من الأسواق، وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تُعقد فيه. إلا أن أوسع هذه الأسواق، وأكثرها شهرة سوق عكاظ التي تقع في مكة بالقرب من عرفات، وتبدأ من منتصف ذي القعدة إلى نهايته، وكان يجتمع فيها عدد كبير الناس ممن يقصدون مكة للحج. وسبب شهرة هذه السوق أنها تقام في مكان له قدسيته عند العرب، ثم أن وقت إقامتها يصادف موسم الحج، كما أنها سوق واسعة تشمل مختلف النشاطات والفعاليات وكان للجانب الأدبي نصيب وافر في هذه السوق، حيث يفد إليها الشعراء من كل أنحاء الجزيرة لينشدوا ما أحدثوا من فنون الأدب التي يأتي في مقدمتها الشعر، وبقية الناس يستمعون، وكان الشعراء يتنافسون على وصول قصائدهم وأشعارهم إلى هذا المهرجان الأدبي لكي تسير وتنتشر بين الناس، وكان للنقد الأدبي نصيب في هذا المهرجان، حيث كانت تضرب للنابغة الذبياني قبة حمراء من جلد فيجلس فيها ويتقدم الشعراء لينشدوا أشعارهم أمامه وأمام الحاضرين، فمن أشاد به طار صيته في آفاق الجزيرة وتناقل الناس أشعاره، وكان يبدي بعض الجوانب النقدية، كما حدث مع حسان ثابت، إذ كان الأعشى قد أنشد مطوّلته التي أولها:

ما بكاء الكبيرِ بالأطلالِ وسؤالي وما تردُّ سؤالي

وأنشد حسان بعده، قوله:

لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرّقٍ فأكرم بنا خالاً وأكرمْ بنا ابنما

فقال النابغة: أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدتَ ولم تفخر بمن أنجبك. ثم أنشدته الخنساء في هذا المجلس قصيدتها في رثاء أخيها صخر:

قـذىً بـعـيـنـيـك أمْ بـالـعـيـن عُـوّار أم أقـفـرت مُـذْ خـلـتْ مـن أهـلـهـاالـدارُ

فقال لها النابغة: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فغضب حسان وقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك و من جدك! فقبض النابغة على يده ثم قال: يا ابن أخي: إنك لا تحسن أن تقول مثل قولي:

فـإنـك كـالـلـيـل الـذي هـو مـدركـي وإن خـلـت أن الـمـنـتـأى عـنـك واسـعُ

فأطرق حسان وانصرف [1].

ومثلما كان النابغة الحكم الأدبي، كان الأقرع بن حابس هو الحكم الإجتماعي والسياسي، حيث كان يجلس في هذه السوق ويأتيه الناس ويحتكمون إليه فيما عندهم من شؤون حياتهم، أو فيما يحدث بينهم من خلافات ومنازعات فيصدر حكمه وغالباً ما يكون حكمه نافذاً.

وفي هذه السوق كان هناك من يقف فيها خطيباً وناصحاً وموجهاً كقس بن ساعدة الإيادي الذي استمع إليه الرسول ﷺ وسلم وهو يلقي خطبته الشهيرة «أيها الناس اسمعوا وعوا، وانظروا واذكروا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. . . الخ»[2]

وكانوا يفتدون أسراهم في عكاظ، ويدفعون الديات حقناً للدماء ورغبة في حياة السلم الآمنة الوادعة.

وهكذا يتضح لنا أن سوق عكاظ تعد بحق مهرجاناً أدبياً راقياً ومؤتمراً كبيراً يجتمع فيه العرب من كل حدب وصوب.

ومن أسواق العرب ذو المجاز وهو أقل شهرة من عكاظ، وكانت قريش تقيمه بالقرب من سوق عكاظ، وتظل هذه السوق قائمة إلى نهاية الحج.

---

(1) ينظر: الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 2/ 261.

(2) ينظر: البيان والتبيين ـ الجاحظ 1/ 308.

الأدب

معنى كلمة (أدب):

لم تنحصر كلمة (أدب) في معنى واحد، وإنما دلّت هذه الكلمة على أكثر من معنى، وذلك وفقاً لما حصل من تطور رافق تطور الأمة العربية وانتقالها من حياة البداوة إلى حياة المدنية والاستقرار والحضارة. وقد اختلفت معاني هذه الكلمة حسب العصور الأدبية التي مرّت بها الأمة العربية.

فالأدب الذي نعنيه بدراستنا هو ذلك الكلام البليغ الجميل المعبّر عن أحاسيس الأديب وعواطفه، والذي يقصد به إلى التأثير في عواطف القارىء والسامع. ويتميز بالألفاظ والجمل والفقرات التي تشكل النص الأدبي، في حين تتميز الموسيقى بالألحان ويتميز الرسم بالخطوط والألوان.

والأدب يختلف عن العلم اختلافاً كبيراً، فبينما يهتم الأدب بالعاطفة والخيال والجرس الموسيقي، ويختار الكلمات الجميلة والعبارات اللطيفة، نجد أن العلم لا يعنيه ذلك، إنما يهتم العلم بالأدلة والبراهين والنظريات وما يجري في المختبر من فحوصات وتجارب.

فإذا تحدث الإديب عن القمر فإنما يتحدث عن علوه وشموخه وسحره وأنواره بأسلوب جميل رائع يجعل القمر يتحدث ويحاور، حتى ليجد القارىء

نفسه شغوفاً بقراءة هذا النص الأدبي الجميل، وذلك ما نجد مثالاً له في كتاب مصطفى صادق الرافعي (حديث القمر).

وإذا أراد الجغرافي أن يتحدث عن القمر فإنه يتحدث عنه بكلام علمي جاف حيث يبين لنا موقعه في المجموعة الشمسية وبعده عن الأرض وكيفية دورانه وما يحدث له من خسوف وكيف تكون أشكاله في أول الشهر القمري وفي وسطه ونهايته.

ومن هذا المثال نجد الفرق واضحاً بين لغة الأدب ولغة العلم، وحينما نعود إلى أصل كلمة (أدب) نجد أن معناها كان حسياً ثم أخذ يتطور في عصور لاحقة، وسوف نتتبع ما كانت تدلّ عليه من المعاني:

العصر الجاهلي:

وجدت هذه الكلمة بمعنى الداعي إلى الطعام، مأخوذة من أدب القوم يأدبهم ـ بالكسر ـ إذا دعاهم إلى طعامه، والآدب الداعي، قال طرفة بن العبد مفتخراً:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى　　　لا ترى الآدب فينا ينتقر[1]

والمأدبة هي الطعام الذي يدعى إليه الناس، وما زالت كلمة (المأدبة) تستخدم بهذا المعنى في وقتنا الحاضر.

العصر الإسلامي:

استعملت كلمة (أدب) في عصر صدر الإسلام في معنى تهذيبي أخلاقي يدل على التربية الفاضلة والأخلاق الحميدة، حيث أنها جاءت على لسان الرسول ﷺ بهذا المعنى، وذلك في قوله: «**أدّبني ربي فأحسن تأديبي**»[2] وهكذا انتقلت الكلمة من الدعوة إلى الطعام إلى الدعوة إلى الفضائل والمكارم وهو معنى ذهني.

---

(1) الصحاح: الجوهري ـ مادة (أدب) 1/ 86 دار العلم للملايين ـ بيروت.

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر ـ ابن الأثير 1/ 3 القاهرة 1311هـ.

العصر الأموي:

بقي المعنى الخلقي التهذيبي جارياً في عصر بني أمية ثم أضيف إليه معنى جديد هو معنى تعليمي، فقد أصبحت كلمة (المؤدبين) تطلق على جماعة المعلمين الذين كانوا يعلّمون أولاد الخلفاء والأمراء ألوان الثقافة والمعرفة والتربية الخلقية من شعر وخطب ومسائل نحوية وما للعرب من أنساب وأخبار وأيام. وإلى هذا قصد الجوهري بتعريفه الأدب إذ قال «الأدب: أدب النفس والدرس، تقول منه: أدُب الرجل ـ بالضم ـ فهو أديب، وأدّبته فتأدّب»[1]. أما ما يتعلق بالشريعة الإسلامية وما يتصل بها من تفسير وحديث وفقه فقد أطلق عليها (علوم الشريعة) وكأنّ كلمة (أدب) تقابل كلمة (علم) نظراً لإستخدام كل من الكلمتين في الحقل الخاص بها.

العصر العباسي:

ظل استخدام كلمة أدب في المعنى التهذيبي والمعنى التعليمي جارياً في هذا العصر، حيث أطلقت كلمة (أدب) على الحكم والأمثال والنصائح، وبهذا سمى إبن المقفع كتابه (الأدب الصغير والأدب الكبير) وكذلك دلت على مجموعة من العادات والتقاليد والسنن التي يجب الالتزام بها عند كل طبقة من طبقات المجتمع. وبهذا المعنى ورد كتاب (أدب الكاتب) لابن قتيبة ومثله كتاب (أدب النديم) لكشاجم/ وغير ذلك من الكتب.

أما في جانب المعنى التعليمي فكانت الكلمة تشير إلى معرفة أشعار العرب وخطبهم وأخبارهم، وسموا الكتب التي تتحدث عن ذلك باسم الكتب الأدبية مثل كتاب (الكامل في اللغة والأدب) للمبرد، وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، وقد توسعوا في استخدام هذه الكلمة فأطلقت على الجوانب التأريخية وغيرها، ما عدا الجوانب الدينية.

---

(1) الصحاح ـ الجوهري ـ مادة (أدب) 1/ 86.

العصر المغولي:

لم يطرأ تغيير كبير على استخدام كلمة (أدب) في هذا العصر سوى أنها أصبحت واسعة المدلول بالنسبة للقضايا التعليمية، حيث أصبحت تشمل مختلف المعارف سواء كانت دينية أوغير دينية، وهذا ما يدلنا عليه قول إبن خلدون «الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف»[1].

العصر الحديث:

تدل كلمة (أدب) في عصرنا الحديث على معنيين هما:

أ ـ **معنى عام**: يطلق على كل ما يتعلق باللغة ويكتب فيها ويشمل ذلك الأدب الخالص وعلوم الفلسفة والإجتماع والتأريخ وغيرها مما تكون نتاج العاطفة والعقل. وعلى هذا المفهوم قسمت الدراسة في المرحلة الثانوية إلى فرعين: أدبي وعلمي. والإدب يشمل جميع الجوانب الإنسانية، أما العلمي فيشمل العلوم الصرفة كالكيمياء والفيزياء والرياضيات.

ب ـ **معنى خاص**: يراد به الأدب الخالص بنوعيه: الشعر والنثر الفني، وهو نتاج العواطف والمشاعر والأحاسيس التي تؤثر في القارىء والسامع. وهذا المعنى هو الذي نريده حينما نطلق كلمة (أدب) في عصرنا الحديث.

تأريخ الأدب

الأدب هو نتاج أمة من الأمم على مدى حقب من الزمن. وحينما يراد دراسة ذلك النتاج الأدبي فلا يمكن دراسته بمجموعه طيلة مئات السنين، إذن لابد من تجزئته إلى فترات لكي تسهل دراسته، وغالباً ما تقسّم هذه الفترات وفقاً للتطور السياسي والأحداث التي تكون سبباً في تغيير بنية المجتمع وعاداته

(1) المقدمة ـ ابن خلدون ـ ص408 ـ المطبعة البهية.

ونتاجه. واتخذ الجانب السياسي أساساً للتقسيم لأن السياسة تترك آثارها وبصماتها على جميع جوانب الحياة. على أنه ينبغي أن نضع في الحسبان أن العصور الأدبية ليست وحدات مستقلة منفصلة عمّا قبلها وما بعدها، بل هي سلسلة متصلة الحلقات لا يمكن فصل بعضها عن بعض، فأدب العصر الأموي ـ مثلاً ـ هو امتداد طبيعي لأدب صدر الإسلام، وكذلك هو ينبوع ثر لأدب العصر العباسي. وهكذا بقية العصور.

أما المناهج التي اتبعت في كتابة تأريخ أدب أمة من الأمم فهي مرتبطة بالتعريف السابق لكلمة (أدب) في العصر الحديث، فإذا التزم المؤرخ بالمعنى العام لكلمة (أدب) فأن تأريخه يشمل الحياة العقلية والعاطفية للأمة، فيتحدث عن هذه الحياة منذ نشأتها ومراحل تطورها، مع الحديث عن حياة الشعراء والكتاب والفلاسفة والعلماء وكل من أسهم في صنع هذه الثقافة أو ترك بصمة من بصماته عليها، ويعد كتاب (تأريخ الأدب العربي) للمستشرق كارل بروكلمن مثالاً لهذا المنهج العام، حيث تحدث عن جميع الأدباء والعلماء وعمّا أنتجوه من مختلف أنواع المعرفة وما تركوا من آثار مطبوعة ومخطوطة، والمكانة التي احتلوها والإبداعات التي قدّموها في مجال الأدب والعلم والفن، ومن الكُتّاب العرب الذين اتبعوا هذا المنهج جرجي زيدان حينما ألف كتابه (تأريخ آداب اللغة العربية) حيث تحدث عن جوانب متعددة وألوان مختلفة من فروع الأدب والعلم والمعرفة، علماً بأنه لم يبلغ ما بلغه بروكلمن من الإحاطة والشمولية والدقة في تتبع الخبر والأثر. أما إذا التزم المؤرخ المعنى الخاص لكلمة (أدب) فإن تأريخه يقتصر على الأدباء من الشعراء والكتاب، فيفصّل الحديث في حياتهم الشخصية مركزاً على حياتهم الأدبية وما أصابها من مؤثرات البيئة بكل أنواعها: السياسة والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، متحدثاً عن نتاج هؤلاء الأدباء حديثاً مفصلاً دارساً وناقداً في بعض الأحيان مبيناً جوانب التطور أوالجمود الذي يصيب الأدب في فترة من الفترات، ويمكن أن يكون كتاب (تأريخ آداب العرب) للرافعي مثالاً لهذا المنهج.

ومن الباحثين والكتاب من جمع بين المنهجين، أو استفاد من كليهما، فهم وإن ركزوا حديثهم على الأدب والأدباء في فترة من الفترات إلا أنهم لم يهملوا التأثير الزماني والمكاني وما يمكن أن تتركه العوامل السياسية والإقتصادية والاجتماعية من تأثيرات في حياة الأديب حتى يظهر أثرها في نتاجه الأدبي، ولعل شوقي ضيف أحد أولئك الذين جمعوا بين تلك المناهج حينما ألّف سلسلة كتابه (تأريخ الأدب العربي) جاعلاً كل جزء لعصر من العصور الأدبية، متحدثاً عن حياة الأدباء ونتاجهم الأدبي وجوانب التطور في أدبهم، وما تركته جواتب الحياة المختلفة من أثر في نتاجهم.

أما عصور الأدب العربي فقد اختلف الباحثون في تقسيمها من حيث الفترة الزمنية ومن حيث الاسم أو العنوان. وسنذكر أشهر تقسيم لعصور الأدب:

عصر ما قبل البعثة:

ويسمى عصر ما قبل الإسلام أو العصر الجاهلي، وبداية هذا العصر مجهولة، ولكننا إذا أخذنا برأي الجاحظ فيمكن أن نحددها بـ (200) سنة قبل الإسلام. أما نهاية العصر فتكون مع ظهور الإسلام.

عصر صدر الإسلام:

ويبدأ بظهور الإسلام وانتشاره ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وينتهي بانتهاء حكم الخلفاء الراشدين سنة 41هـ.

العصر الأموي:

ويبدأ من استيلاء بني أمية على الحكم سنة 41هـ وانتقال الخلافة إلى دمشق وينتهي سنة 132هـ حينما قضي على آخر خلفاء بني أمية في الشام.

العصر العباسي الأول:

يبدأ من سنة 132هـ وهي السنة التي استولى فيها بنو العباس على الحكم ويستمر مائة عام تقريباً وينتهي سنة 232 هـ.

العصر العباسي الثاني:

يبدأ من سنة 232 وينتهي باستيلاء بني بويه على الحكم سنة 334هـ.

العصر العباسي الثالث:

يبدأ من سنة 334هـ وينتهي بسقوط بغداد على يد التتار سنة 656هـ وانتهاء فترة الخلافة العباسية.

عصر الفترة المظلمة:

يبدأ من اسنيلاء التتار على بغداد وسقوط الخلافة العباسية سنة 656هـ وينتهي بنزول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بمصر سنة 1213هـ.

العصر الحديث:

يبدأ من سنة 1213هـ الموافق 1798م ويستمر إلى يومنا هذا، وقد يستمر لسنوات أخرى الله أعلم بها.

أقسام الأدب

الأدب تعبير عن حالة وجدانية تمرّ بالأديب فيترجمها بالكلمات إلى صورة من الصور التي يتقنها، فإذا وضعت الكلمات على نسق معين وأصبح لها وحدات نغمية متساوية فذلك هو الوزن، وإذا ختمت هذه الوحدات بأصوات متشابهة فتلك هي القافية، وحينئذٍ يسمى هذا الكلام شعراً، وإذا خلا من واحدة من هذه الميزات فهو النثر، وعليه فكلام الأديب ينقسم إلى قسمين:

1 ـ **الشعر**: وهو الكلام الجميل المعبر عن أحاسيس الشاعر وخلجات نفسه وما يعتلج في داخله من مشاعر وانفعالات بحيث تكون كلماته شفرات تحمل طاقة كبيرة ومعاني عديدة أكثر مما تحمله هذه الكلمة نفسها لو استخدمت في غير الشعر. فالكلمات في الشعر رموز لحالات يرمي الشاعر إلى الإشارة إليها لتخلق عند الملتقي حالة من تداعي المعاني التي

تفتح في ذهنه صوراً مخزونة لأمور مشابهة لتلك التي يشير إليها الشاعر.

ويمتاز الشعر إضافة لذلك بالوزن والقافية وهما أمران يجعلان الشعر أقرب إلى نفس الملتقي وأكثر لصوقاً بقلبه وأشد تأثيراً في مشاعره.

2 ـ **النثر**: ولا يقصد به الكلام العادي أو لغة التخاطب التي يستخدمها الناس في شئون حياتهم اليومية، وإنما يقصد به ذلك الكلام البليغ الذي يستخدمه الأديب للتعبير عن رؤاه وانفعالاته بأساليب من الكلام الجميل لكنها لا تدخل في خانة الشعر.

وللنثر الفني أنواع عديدة يبدع الأديب في واحد منها أو أكثر، وهذه الأنواع هي: الخطابة والأمثال والحكم وسجع الكهان والوصايا.

وقد ظهرت في العصور المتأخرة أنواع أخرى من النثر هي: **القصة** والمسرحية والمقالة.

وسوف نفصل الحديث في كل من أقسام الأدب ونبدأ أولاً بالشعر:

أولية الشعر العربي

لم يستطع الباحثون تحديد الفترة الزمنية التي نشأ فيها الشعر العربي، لغموض تلك الفترة، ولعدم وجود نصوص أو شواهد توضّح كيفية نشوء الشعر، وما وصلنا من شعر قديم إنما يعود إلى آخر فترات العصر الجاهلي وهو شعر يمثّل الصورة التامة الناضجة للشعر بتقاليده الفنية المعقّدة في الوزن والقافية وفي الأساليب والموضوعات والمعاني مما يدل على أنه سُبق بشعر أبسط منه وأقل نضجاً، لأن سُنة الله في خلقه أن تبدأ الأشياء صغيرة ثم تكبر، وبسيطة ثم تتعقد وتتطور، إلا أن طفولة هذا الشعر وبدايته وأولياته ستظل مجهولة، لبُعد تلك الفترة وغوصها في أعماق التأريخ، ولأن المؤرخين والباحثين لم يجدوا ما ينير لهم معالم تلك الفترة السحيقة. إلاّ أن معظم الأدباء يشيرون إلى ضرورة وجود شعر قديم سبق الشعر المنقول إلينا، ووجود شعراء سبقوا الشعراء

المعروفين في ذلك العصر، ومما يؤيد قولهم هذا ما ذكره الشعراء الجاهليون أنفسهم من إشارات إلى شعراء سبقوهم كان لهم دور في وضع الأُطر والتقاليد الأدبية المعروفة. من ذلك قول امرئ القيس[1]:

عوجا على الطَللِ المُحيل لأننا نبكي الديارَ كما بكىٰ ابنُ خِذامِ

فهو يشير في هذا البيت إلى شاعر سبقه هو ابن خذام وقف على الأطلال وبكىٰ الديار وساهم في وضع قواعد هذه المقدمات الطللية، إلا أن الغموض يلفّ كلّ شيء يتعلق بابن خذام هذا، فلا أحد من المؤرخين والأدباء يذكر شيئاً عن هذا الشاعر وعن حياته وشعره.

ومن الإشارات الأخرى إلى وجود شعراء سبقوا شعراء العصر الجاهلي الذين نعرفهم قول عنترة ين شداد العبسي[2]:

هل غادر الشعراء من متردم أمْ هلْ عرفتَ الدارَ بعد توهّم

إنه يقول: إن الشعراء الذين سبقوه وقفوا على الأطلال وتناولوا في شعرهم مختلف المعاني الجميلة والتعابير اللطيفة حيث أنهم لم يتركوا زيادة لمستزيد في هذا الجانب.

ولكن من هم هؤلاء الشعراء؟ ومتى عاشوا؟ وكيف كان شعرهم؟

إن المعلومات المتوافرة لدي الباحثين لا تذكر عن هؤلاء شيئاً. وحتى الإشارات البسيطة الواردة في بعض الكتب لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وهي - غالباً - من صنع خيال القصاصين والرواة، من ذلك ما روي عن آدم عليه السلام من أنه قال حينما قتل قابيل أخاه هابيل:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغير كل ذي طعم ولون وقلَّ بشاشةَ الوجهُ المليح

---

(1) ديوان امرئ القيس ص114 (دار المعارف).
(2) ديوان عنترة ص15 والجمهرة ص161.

وجـاورنـا عـدو لـيـس يـفـنـى لـعـيـنٌ لا يـمـوت فـنـسـتـريـح
أهـابـل إن قـتـلـت فـإن قـلـبـي عـلـيـك الـيـوم مـكـتـئـب قـريـح

وأن إبليس أجابه على هذا الشعر من حيث يسمع صوته ولا يرى شخصه قائلاً:

تـنـحَ عـن الـبـلاد وسـاكـنـيـهـا فـقـد فـي الأرض ضـاق بـك الـفـسـيـح
وكـنـت وزوجـك الـحـواء فـيـهـا آآدم مـن أذى الـدنـيـا مـريـح
فـمـا زالـت مـكـايـدتـي ومـكـري إلـى أن فـاتـك الـثـمـن الـربـيـح
فـلـولا رحـمـة الـرحـمـن أضـحـت بـكـفـك مـن جـنـان الـخـلـد ريـح[1]

ولا يمكن التسليم بصحة هذه الرواية ولا بصحة نسبتها إلى آدم وإلى إبليس لأمور كثيرة لعل أهمها: عدم معرفة اللغة التي كان يتكلم بها آدم أهي العربية أم غيرها؟ ثم بُعد الفترة الزمنية منذ زمن آدم إلى عصر التدوين في العصر العباسي، واستحالة نقلها عن طريق الرواية الشفوية طيلة هذه الفترة الزمنية التي لا يعرف مداها إلا الله سبحانه وتعالى.

ومما يدخل في باب الأساطيرالتي اخترعها القصاصون والرواة ما نسبوه إلى قوم عاد وثمود من شعر هو:

ألا يـاقـيـل ويـحـك قـم فـهـيـنـم لـعـل الـلـه يـصـحـبـنـا غـمـامـا
فـيـسـقـي أرض عـاد إن عـادا قـد أضـحـوا مـا يـبـيـنـون الـكـلامـا[2]

إذ لا يمكن التصديق بصحة نسبة مثل هذا الشعر إلى أقوام بادوا وهلكوا جميعاً وهم الذين قال عنهم سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ * وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [سورة النجم، الآية: 50, 51] وقال جلّ شأنه: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [سورة الحاقة، الآية: 8].

---

(1) ينظر في هذه الأسطورة: مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ المسعودي 1/ 32 وينظر: الجمهرة ص26.
(2) جمهرة أشعار العرب ـ القرشي ص27.

فإذا كان الأمر كذلك فكيف وصلنا شعرهم؟ ومن الذي نقله[1]؟ وخلاصة ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع أنه لا يمكن تحديد زمن معين ينسب إليه أول الشعر والشعراء، وكذلك لا يوجد شاعر بعينه اتفق فيه على أنه أول من قال الشعر، لأنه «لا تستطيع رواية مأثورة أن تقدّم لنا خبراً صحيحاً عن أولية الشعر»[2].

وكل ما يمكن قوله هو أن الشعر العربي قديم النشأة بعيد الغور ممتد الجذور، تلك الجذور التي تمثل النشأة الأولى لهذا الشعر.

تطور الشعر العربي

أن الشعر القديم الذي بين أيدينا الآن يمثل النموذج الكامل الناضج، وهذا يعني أنه قطع مراحل عدة حتى وصل إلى هذا المستوى، فليس من الطبيعي ولا من المعقول أن ينشأ الشعر أول ما ينشأ بهذه الصورة المتكاملة وبهذا الشكل الرفيع، ولا بد أن يكون قد سبق بشعر أبسط منه وأقل نضجاً، وهكذا نزولاً في المستوى، حتى نصل إلى بذراته الأولى، فكيف كانت تلك البذرات؟ يذهب بعض الباحثين إلى أن أولية الشعر كانت أبياتاً قليلة من أوزان قصيرة قيل إنها من بحر الرجز. وأن هذه الأبيات تولدت عن سجعات تساوت في مقاطعها الموسيقية فأعجب بها من سمعها، وأخذوا ينظمون على شاكلتها، حينما يجدون حاجة لذلك، قال ابن قتيبة: «لم يكن لأوائل الشعراء إلاّ الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة»[3] ثم أخذت الأبيات بعد ذلك تطول والأوزان تتعقد ويبدو أن ذلك استغرق زمناً طويلاً، حتى بلغ عدد أبيات القصيدة ثلاثين بيتاً من الشعر عند المهلهل، ثم ذؤيب بن كعب بن تميم، ثم ضمرة رجل من بني

(1) ينظر طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام ص28 بيروت 1988.

(2) تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمن 1/ 44 دار المعارف بمصر.

(3) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة 1/ 48 بيروت وطبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام ص33.

كنانة، ثم الأضبط بن قريع، وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمائة سنة، وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير»[1].

ويرى إبن سلام الجمحي مثل هذا الرأي حينما يسند مهمة تطويل الشعر إلى المهلهل فيقول: «إن المهلهل بن ربيعة هو أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع في مقتل أخيه كليب»[2].

ويبدو أن هذه الآراء لا تستند إلى ما يؤيدها من نصوص ثابتة وأدلة قاطعة، إذْ من المحتمل أن تكون هناك قصائد بهذا الطول نظمت قبل المهلهل ومعاصريه بأزمان ولكنها لم تصلهم، أو لم تنقلها لهم حافظة الزمن فطواها الزمن واندثرت مع اندثار قائليها، إلاّ أنه يمكن القول أن قصائد المهلهل ومعاصريه أقدم ما وصل مروياً إلى عصر التدوين وليست أقدم ما نُظم.

ثم أخذت القصائد بعدهم تطول وتنمو وتتطور حتى وصلت أوج رقيها في زمن امرىء القيس ومعاصريه، إذ تعد معلقة امريء القيس في قمة الشعر الجاهلي تكاملاً ونضجاً من الناحية الفنية والموضوعية. ولعل هذا ما جعل الجاحظ يقرر أن امرأ القيس من أوائل من فتحوا طريق الشعر لمن جاء بعدهم حيث قال: «أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر الكندي ومهلهل بن ربيعة»[3] وهو يشير بذلك إلى أن الشعر الذي وصلنا لا يتعدى تأريخه المائتي عام قبل البعثة، أما قبل ذلك فكان هناك شعر وكان هناك شعراء ولكن لم يصلنا شعرهم ولم يصلنا من أخبارهم شيء لعدم انتشار التدوين أولاً ولطول الفترة الزمنية التي تساعد على نسيان ما وعته الحافظة ثانياً. وإن كان السيوطي يتوغل في هذه الحقبة ويمدّها

(1) المزهر في علوم اللغة ــ السيوطي 2/ 477 دار الفكر ــ بيروت.
(2) طبقات فحول الشعراء ــ ابن سلام ص33.
(3) الحيوان ــ الجاحظ 1/ 74.

إلى أربعمائة عام قبل البعثة ـ كما مرّ بنا قبل قليل ـ وهو زمن وجود المهلهل ونشوب حرب البسوس بين بكر وتغلب.

أما كيفية تطور الشعر فيمكن أن نتخيلها تخيلاً لا خبراً يقيناً، وهي أن لغة التخاطب أي الكلام العادي دخلت أولى خطوات الفن الأدبي على يد أشخاص مرهفي الإحساس فجعلوا كلامهم المكوّن من جملتين أو أكثر ينتهي بحرف واحد وهو ما يسمى بـ(السجع) ووجدوا فيه حلاوة ووقعاً جميلاً في الأذن. ثم جاءت المرحلة التالية حيث تساوت المقاطع الصوتية أو النغمة الموسيقية في هذه الجمل وهو ما يسمى بـ(الوزن) وبذلك نشأ أبسط أنموذج للبيت الشعري ولعله يكون (الرجز) ذلك اللون البسيط من الشعر، فأحدث هذا الإيقاع الموسيقي المتناغم طرباً وارتياحاً لدى السامع فأعجبوا به وأخذوا ينظمون على منواله، ويستخدمونه للتعبير عن بعض حاجاتهم أو تصوير حالاتهم النفسية وما ينتابهم من فرح وحزن.

ثم من الرجز تولدت البحور الشعرية الأخرى وهي المرحلة الأخيرة من مراحل تطور الشعر، فيها طالت أبيات القصيدة وتعددت أغراضها وتشعبت أوزانها، وأصبحت تمثل مستوى رفيعاً من الذوق الأدبي بما يحمله من صور فنية جميلة قائمة على التشبيه والإستعارة والكناية، ومزوقة بكل ألوان البديع من طباق وجناس وغيرهما. وأصبح تعاطي الشعر أو نظمه ملكة وموهبة وصناعة لا يجيدها إلاّ الحاذق بها، وأصبح هناك شعراء يدققون النظر فيما نظموا من شعر ويجيلون فكرهم فيه فيحذفوا منه ويبدّلوا فيه ويضيفواإليه حتى يستوي ـ في نظرهم ـ في صورته النهائية المتكاملة، وأصبح هناك نقاد بينوا مواطن الضعف والنقص في هذا الشعر أو ذاك، وأصبحت هناك سنن وأعراف وتقاليد للشعر (عمود الشعر) لا ينبغي الخروج عليها. وبذلك أصبح للشعر منزلة رفيعة في نفوس العرب، وتأثير كبير في مشاعرهم وأهوائهم، فراح يهذّب النفوس ويصقل الطباع ويدعو إلى خصال الخير، وينفر من خصال الشر، فتغنى به الناس، وحملوه في أذهانهم لتسليتهم في كل مكان يحلّون، ورفعوا الشاعر

منزلة علية، وأحلّوه مكانة سامية، واحتفلوا ونحروا الإبل وأقاموا الولائم بمناسبة نبوغ شاعر في قبيلتهم، فهو لسان قومه، والمدافع عنهم في كل محفل، والذي يردّ عنهم هجاء الخصوم، ويحمي ذمارهم في المنتديات والأسواق، وفي مجالس الملوك والأمراء.

رواية الشعر

من المعروف أن الكتابة لم تكن شائعة ومنتشرة في عصر ما قبل البعثة، إنها كانت معروفة وكان يتقنها نفر من الناس، ولكنها كانت محصورة بين قلة منهم بالقياس إلى كثرة الناس الذين كانوا لا يحسنون القراءة والكتابة. لذلك فإن الشعر العربي القديم الذي نظم قبل البعثة نقل من جيل إلى جيل عن طريق الرواية الشفوية، حيث كان الناس يحفظونه ويروونه لكثرة شغفهم به، وقد ساعدهم على ذلك أن حافظتهم كانت قوية وقد مرّنوها على الحفظ فاستوعبت معظم ما نظم من شعر تلك الفترة.

وعليه فإنه يمكن القول إنّ الرواية هي الوسيلة الأولى والمهمة لنشر الشعر الجاهلي وذيوعه، وكان لكل شاعر راوية أو أكثر يحفظ شعره ويذيعه بين الناس، وربما كان معظم الشعراء رواة في أول أمرهم، يلزمون شعراء معروفين ويحفظون شعرهم ويتعلمون منهم أصول هذا الفن، حتى إذا تمكنوا منه واشتهروا بين الناس تركوا الرواية وأصبح لهم رواتهم، وهكذا استمرت سلسلة الرواية والرواة، يشهد على صحة ذلك ما يروى من أنّ الأعشى كان راوية لخاله المسيب بن علس، وأن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي، وأن طرفة بن العبد كان راوية لعمه الرقش الأصغر ولخاله المتلمس ويأخذ عنهما، وزهير بن أبي سلمى كان يروي عن أوس بن حجر زوج أمه ويأخذ عنه، وعن زهير أخذ ابنه كعب والشاعر الحطيئة، وروى شعر الحطيئة هدبة بن خشرم العذري، وعن هدبة روى جميل بن معمر، وعن جميل أخذ كثير عزّة وهكذا...

وكانت القبائل تهتم كثيراً برواية شعر شعرائها أو ما قيل فيها من مدح، حتى صغارهم يتعلقون بحفظ تلك الأشعار، يروى أن قبيلة تغلب تعلقت بقصيدة عمرو بن كلثوم:

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا[1]

تعلقاً شديداً لأنها كانت ترفعها فوق القبائل الأحرى، فكان التغلبيون يروونها وينشدونها في كل محفل ونادٍ وكأنه لايوجد شعر سواها قال أحد أفراد قبيلة بكر خصوم تغلب معيراً إياهم بذلك.[2]

ألهىٰ بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبداً مذ كان أولهم ياللرجال لشعر غير مسئوم

وهكذا ظل الشعر ينقل عن طريق الرواية طيلة عصر ما قبل البعثة.

ولما جاء العصر الأسلامي طل الشعر ينقل عن طريق الرواية الشفوية على الرغم من انشغال المسلمين بالدين الجديد وبحفظ القرآن الكريم وبالفتوحات، حيث أنهم لم يهملوا الشعر بل كان الرسول الكريم والصحابة يستمعون إلى الشعر ويعجبون به، وقد حث بعض الصحابة على رواية الشعر وحفظه، وكان أبو بكر رضي الله عنه يحفظ كثيراً من الشعر ويرويه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحفظ الشعر ويتمثل به في كل مناسبة، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه عالماً بالشعر وكان أديباً شاعراً، ولم يكن بقية الصحابة أقل اهتماماً منهم بحفظ الشعر وروايته.

وقد زاد الإهتمام بالشعر في العصر الأموي نظراً لاهتمام الخلفاء والولاة به، فقد كانت مجالسهم تعجّ بالأدباء والشعراء وأهل اللغة والعلم وكانت أشبه بمنتديات أدبية يلقى فيها الشعر ويروى، ويدلي الحاضرون بآرائهم فيما يقال

---

(1) الجمهرة ص139 والديوان 64.

(2) الأغاني 11/ 54 ـ دار الكتب.

ويُلقىٰ من فنون الشعر، وما يطرح من قضايا لغوية ونحوية وأدبية، علماً بأن بعض الخلفاء كان يحفظ الشعر كثيراً، حيث يقال إن عبد الملك بن مروان كان يحفظ الشعر ويقبل عليه ويكرم الشعراء والرواة. وقد ساهم الشعراء أنفسهم في حفظ الشعر الجاهلي وروايته حيث كان كثير منهم يقبل عليه ليتقن فنه ويتعلم طريقته.

ونشأت طائفة متخصصة في حفظ الشعر وروايته وجعلوا تلك مهنتهم، حتى اشتهروا بغزارة علمهم وكثرة حفظهم وسعة اطلاعهم وإلمامهم بقواعد اللغة والشعر، وكانوا يستقون معلوماتهم من أعراب البادية الذين ظلت لغتهم سليمة لعدم اختلاطهم بغيرهم من الأمم، وكان تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه وأحكامه الدافع الأساس لهؤلاء الرواة إلى جمع الشعر، حيث استعانوا به على فهم ألفاظ القرآن الكريم والغوص في أساليبه الرفيعة وسوره المحكمة.

وقد أكثر أهل الكوفة من رواية الشعر ونقله معتمدين على السماع، وكان بعض رواتهم لا يدقق أو يمحّص في صحة الشعر الذي يرويه، أهو للجاهليين حقاً، أم أنه شعر نُظم في عصور متأخرة ونُسب إلى الجاهليين، في حين كان البعض الآخر لا ينقل الشعر إلاّ بعد الوثوق من صحة نسبته، فمن الرواة المشكوك في روايتهم حماد الرواية(ت 156هـ) حيث اتهم بالكذب والتزيّد، قال عنه ابن سلاّم «وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الرواية، وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار»[1] وكان حماد حادّ الذكاء كثير الحفظ عالماً بكلام العرب.

ومن الرواة الموثوق في روايتهم في الكوفة المفضّل الضّبي (ت 170هـ) حيث كان أميناً ودقيقاً في نقل الأشعار ولا يرقى الشك إلى روايته، ومثله في الدقة والأمانة أبو عمرو الشيباني (ت 213هـ) وابن الأعرابي (ت 231هـ). أما أهل

---

(1) طبقات فحول الشعراء ـ ص40 دار المعارف بمصر 1952.

البصرة فكان رواتهم أكثر دقة من أهل الكوفة، وكان عمرو بن العلاء (ت 154هـ) أشهر رواة البصرة الذين عرفوا بالدقة والتثبت، وكان أحد القرّاء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم، وقد اشتهر بالصدق والأمانة، ولم يقصر جهده على الشعر، بل اهتم باللغة والنحو أيضاً، وكان من أوائل النحاة في البصرة.

ومن الرواة الثقات في البصرة الأصمعي (ت 215هـ) حيث عرف بالأمانة والصدق وبدقة ما يرويه، وكان واسع العلم بأخبار الجاهلية وأيامها وأشعارها، ومنهم كذلك أبو زيد الأنصارى (ت 215هـ) الذي عاصر الأصمعي وكان عالماً بالغريب واللهجات.

على أن هناك رواة بصريين قلة عرف عنهم الكذب وعدم الدقة في روايتهم، وأشهر هؤلاء خلف الأحمر (ت 180هـ) الذي كان تلميذاً لأستاذه حماد الراوية، فأخذ عنه وسار سيرته، وكان شاعراً حاذقاً وعالماً بأشعار العرب وأخبارها، وكان يحفظ شعراً كثيراً، وكان يضع الشعر وينسبه لغير أصحابه.

إلاّ أن العلماء الأثبات العدول مثل الأصمعي وغيره كانوا يعرفون ذلك وينبهون عليه، ولم ينقلوا من الشعر إلاّ ما وثقوا من صحته.

يتضح لنا بعد ذلك أن الشعر القديم ظل ينقل عن طريق الرواية الشفوية منذ أن عرف واشتهر إلى أن قامت عملية تدوينه في أوائل العصر العباسي، وإنه خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة قد سقط منه الكثير لأسباب عديدة، كما أصابه فساد واختلال في صحة نسبة الأشعارإلى قائليها، مما دفع العلماء الموثوق بهم إلى تدقيقه وتمحيصه وغربلته واستخلاص الصحيح منه، كما فعلوا بالحديث النبوى الشريف الذي أصابه ما أصاب الشعر من الوضع والإختلاق.

وقد يبدو لأول وهلة أن تدوين الشعر تأخر كثيراً، ولكن لوعلمنا بأن الحديث النبوي الشريف بما له من قدسية لم يدوّن إلاّ في تلك الفترة أو قبلها بقليل، لأدركنا أن مسألة تدوين الشعر الجاهلي وتأخرها مسألة طبيعية.

تدوين الشعر

مرّ بنا أن الشعر الجاهلي ظل ينقل عن طريق الرواية الشفوية إلى فترة متأخرة بعد نزول الوحي وبالتقريب إلى منتصف القرن الثاني الهجري، صحيح أن الكتابة كانت معروفة في عصر ما قبل البعثة وفي عصر ما بعدها، يدل على ذلك ما ورد من ذكر لأدوات الكتابة في أشعارهم مثل قول المرقش الأكبر الذي كان يحسن الكتابة[1]:

الدار قفرٌ والرسزم كما   رقّش في ظهر الأديم قلم

ومثل قول سلاّمة بن جندل[2]:

لمن طلل مثل الكتاب المنمّق   خلا عهده بين الصليب فمُطرق

وصحيح أن الكتابة كانت معروفة في مكة مركزهم الديني والتجاري في ذلك الوقت، وأن الرسول الكريم كان لديه مجموعة من الصحابة ممن يتقنون الكتابة وكانوا يكتبون الوحي بين يديه وقد سموا (كتّاب الوحي)، كما أن الرسول الكريم جعل فداء الأسرى القريشيين الكاتبين الذين أخذوا في معركة بدر أن يعلم الأسير منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة. كل هذا صحيح ـ ولكنهم مع ذلك ـ لم يتخذوا الكتابة وسيلة لنقل الشعر الجاهلي والإسلامي، ربما دوّنوا بعض المقطعات وبعض القصائد ولكن ذلك كان في أضيق نطاق. أما الكثرة الكثيرة من الشعر فلم تدوّن، ويبدو أن أهم سبب في ذلك هو صعوبة وسائل الكتابة، وهي غالباً ما تكون من الحجر وسعف النخيل والجلود والعظام، وهذه الأدوات قد تصلح لكتابة كلام مهم قليل، ولكنها لا تصلح لكتابة آلاف الأبيات من شعر العرب، ومعنى هذا أنّ الكتابة لم تُتخذ أداة لحفظ الشعر الذي قيل قبل البعثة أو بعدها، ولم يفكروا في جمع شعرهم أو جزء منه في كتاب طيلة تلك

(1) المفضليات ـ ص237 ـ دار المعارف بمصر ـ ط3.

(2) الأصمعيات ـ ص146 ـ دار المعارف بمصر.

الفترة، ولكنهم بعد أن دونوا الحديث النبوي الشريف، واحتاجوا إلى وضع قواعد اللغة اعتمدوا على القرآن الكريم واتجهوا إلى الشعر الجاهلي فاتخذوه دليلهم وشاهدهم على ما وضعوا من قواعد، كما اتخذوه موضحاً ومفسراً لألفاظ القرآن الكريم وبيان دلالة كلماته واستنباط معانيه، وكان الاتجاه القبلي أول معلم من معالم تدوين الشعر، حيث ظهر في القرن الثاني للهجرة اتجاه نحو تدوين شعر كل قبيلة وتثبيته في ديوان خاص بها كما في (ديوان هذيل).

ثم جاء دور الرواة الثقات في تدوين شعر ما قبل البعثة في مجاميع شعرية، متخذين منهجاً قائماً على التحرّي والدقة والتوثيق فيما يدونون، وإن اضطرهم ذلك إلى قطع الفيافي والقفار وتحمّل المشاق من أجل أخذ الشعر مشافهة عن حفظته ورواته من الأعراب في البادية، ويمثل هذه المجموعة من الرواة الموثوق بروايتهم عبد الملك بن قريب الأصمعي الذي جمع الشعر الجاهلي الذي توثّق من صحته في كتابه (الأصمعيات). وكذلك فعل المفضل الضّبي في تدوين كتابه (المفضليات)، وقد جمع أبو عمرو الشيباني أشعار أكثر من ثمانين قبيلة، وسار على نهجه ابن الأعرابي وغيره من الرواة. وفي القرن الثالث للهجرة دُوّنت أهم المجموعات الشعرية مثل كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، و(الشعر والشعراء) لابن قتيبة، و(الكامل في اللغة والأدب) للمبرد، بالإضافة إلى كتابة دواوين بعض الشعراء، وشهد القرن الرابع الهجري حركة تدوين واسعة تمثلت في مجموعات شعرية إخبارية ضخمة مثل كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني، وكتاب (معجم الشعراء) للمرزباني، وكتاب (الأمالي) لأبي على القالي. وكان لكل منهم منهج في تأليف مصنفه، فمنهم من ذكر السند كما فعل رواة الحديث ليدلّ بذلك على أمانته فيما يكتب كما فعل صاحب الأغاني. ومنهم من كان يجمع بين السير والأخباروالأشعار مثل كتاب (شرح النقائض) لأبي عبيدة، وكتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة. وبهذه النهضة الثقافية الواسعة يكون بعض الشعر الجاهلي والإسلامي قد دون وحفظ في بطون الكتب وسلم من الاندثار والضياع.

الانتحال

رأينا ـ فيما سبق ـ كيف أن شعر ما قبل البعثة ظل ينقل عن طريق الرواية الشفوبة طيلة قرون عديدة، ولا شك أن هذه المسافة الزمنية الطويلة التي قطعها، وانتقاله من جيل إلى جيل عن طريق الرواية، قد عرضه للشك والاتهام، حيث أثيرت تساؤلات حول هذا الشعر، وما تعرض له من أمور: مثل نسيان جزء منه وسقوطه من أذهان الحفظة والرواة، واختلاط بعض الشعر ببعض، واستبدال كلمة مكان كلمة أو عدة كلمات، ونسبة الشعر لغير صاحبه سهواً أو عمداً، واختلاق شعر ونسبته إلى من لم يقله، إلى غير ذلك من الأمور التي تكون قد أصابت الشعر خلال اجتيازه هذه المرحلة الزمنية الطويلة، مما فسح المجال لبعض الناس من الرواة والقصاصين وحملة الأخبار إلى أن ينساقوا وراء أهوائهم فيخلطوا في الشعر، ولا يتحرون الدقة في نسبة هذا الشعر، إلاّ إن ذلك العمل لم يكن على نطاق واسع وإنما كان محصوراً عند بعض الرواة المعروفين بكذبهم مثل حماد الرواية وخلف الأحمر وأضرابهما، لذلك كان الرواة الثقات يتحاشون الأخذ عنهم إلاّ أن يجدوه في مصادر موثوق بها.

ولعل أول نقد وجّه إلى هؤلاء الرواة كان في زمانهم، حيث وجّه المفضل الضبي (ت 170هـ) نقداً إلى حماد الراوية وبيّن مواطن الزيف والكذب فيما يرويه، كما وجّه الأصمعي (ت 215هـ) نقداً إلى خلف الأحمر. وفعل أبو الفرج الأصفهاني الشيء نفسه مع ابن الكلبي المتوفى (204هـ).

ثم جاءت المرحلة التالية من النقد حين كتب ابن سلاّم الجمحي (ت 231هـ) كتابه (طبقات فحول الشعراء) حيث تحدّث في مقدمته عن الشعر المنحول حديثاً منطقياً، وبين أن أسباب الوضع والنحل تعود إلى عاملين:

أولهما: القبائل وما كانت تقوم به من وضع الشعر ونسبته إلى شعرائهاالقدامى حين ترى أن شعرهم قليل ولا يرفع القبيلة إلى مستوى القبائل الأخرى.

والعامل الآخر: هو الرواة الوضّاعون المشكوك في روايتهم، أو الذين ينقلون الشعر دون معرفة به ودون أن يدققوا فيه، وذكر نماذج من هذه الأشعار المنتحلة والمنسوبة إلى آدم عليه السلام وإلى الملائكة وإلى أقوام بادوا وهلكوا. وحاول أن يضع بعض الأسس والقواعد التي على ضوئهايمكن معرفة الشعر الصحيح من المنحول. رافضاً رواية كل من يدور الشك حوله من الرواة المحترفين أو من رواة الأخبار والقصص. وكان الأصمعي قد رفض أيضاً رواية هؤلاء الرواة المتهمين في روايتهم، وكذلك فعل ابن هشام صاحب السيرة النبوية (ت 218هـ) إذ أسقط قسماً من الشعر الذي رواه ابن اسحاق وبيّن فساده، كما نقد ابن النديم ما ذكره ابن اسحاق من الشعر المنحول[1].

وهكذا تضافرت جهود هؤلاء العلماء الثقات على بيان الشعر المصنوع وردّه وعدم الإعتماد عليه، وفي الوقت نفسه وثقوا كثيراً من الشعر الذي رواه الرواة الأثبات الذين عرف منهم الأمانة والدقة والصدق.

وفي العصر الحديث أثار الباحثون المستشرقون (من غير العرب) قضية الانتحال في الشعر العربي ولاسيما الجاهلي منه. وكانت آراء بعضهم متطرفة، حيث دفعهم هذا التطرف إلى نفي الشعر الجاهلي عموماً، وكان أول من تناول هذا الموضوع (نولدكه) سنة 1864م وتلاه المستشرق (آلورد) في مقدمة دووابن الشعراء الستة الجاهليين، ثم جاء المستشرق الانجليزي (مرجليوث) ونشر مقالة بعنوان (أصول الشعر العربي) سنة 1925م ساق فيهابعض الأدلة التي يراها كافية لإثبات بطلان الشعر الجاهلي والدعوة إلى رفضه جملة.

لقد تصدى لمقالة (مارجليوث) هذه وما طرح فيها من آراء وتصورات خاطئة بعض الباحثين المستشرقين المنصفين فتصدوا للرد عليه وإبطال مزاعمه

(1) ينظر في قضية الانتحال: طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام (المقدمة) ومصادر الشعر الجاهلي ـ ناصر الدين الأسد ص353 وما بعدها، والعصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ص164 وما بعدها والشعر الجاهلي ـ يحيىٰ الجبوري ص99 وما بعدها، وفي الأدب الجاهلي ـ طه حسين.

ومناقشة نظرياته، وكان المستشرق (شارلس جيمس ليال) أول الذين ردّوا على (مرجليوث) وناقشوه فيما كتب نقاشاً علمياً لا سيما ما يتعلق بالرواة وبلغة الشعر، وكذلك فعل المستشرق (برونيلش). كما خاض في هذا الموضوع المستشرق (ريجي بلاشير) في كتابه (تأريخ الأدب العربي) والمستشرق (جبورجي ليفي ولافيدا) وغيرهم.

كما تحدث في هذا الموضوع الباحثون العرب المحدثون، وأولهم مصطفى صادق الرافعي الذي استعرض آراء القدماء حول قضية الانتحال وذكر آراء ابن سلاّم وأيّده فيها.

ثم جاء طه حسين فتناول هذه القضية بشيء من التفصيل وألّف فيها كتابه الموسوم(في الأدب الجاهلي) والذي نشره سنة 1927م وفيه بسط القول بصورة مفصلة معتمداً على آراء إبن سلامّ وعلى آراء المستشرق (مارجليوث) حيث تبناها وفصّلها وأضاف إليها بعض الأمثلة منتهياً من ذلك كله إلى نفي الشعر الجاهلي أو نفي معظمه، ويظهر ذلك واضحاًفي قوله: «إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين»[1].

وقد قسم بحثه إلى ثلاثة أقسام:

1 ـ دوافع الشك في الشعر الجاهلي.

2 ـ أسباب الوضع والنحل.

3 ـ دراسة فريق من الشعراء والشك في نسبة الشعر إليهم.

وذكر أن مما يدفع إلى الشك في صحة الشعر الجاهلي أنه لا يمثل الحياة

(1) في الأدب الجاهلي ـ طه حسين ـ ص 64 ـ ط1.

الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين. وقد أرجع أسباب الانتحال إلى أمور عدة هي: السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة. ثم تحدث عن أشهر شعراء العصر مثل المهلهل وامرىء القيس وعمرو بن كلثوم وطرفة بن العبد والمتلمس والأعشى وغيرهم ثم شك في الشعر المنسوب إليهم.

وحينما نشر كتابه هذا أحدث ضجة كبيرة لما أثاره في نفوس الكثيرين من الأدباء والباحثين ورجال الدين، فانبرى كثير منهم للردّ عليه وإبطال مزاعمه، وحفلت الصحف والمجلات في ذلك الوقت بالمقالات التي تفنّد آراء طه حسين المتطرفة، كما ألفت كتب ترد عليه مثل (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) لمحمد خضر حسين، و(نقد كتاب الشعر الجاهلي) لمحمد فريد وجدي، و(النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي) لمحمد أحمد الغمراوي وغيرها من الكتب. وهذه المجموعة تصور الشعور بالاستيلاء من آراء طه حسين المتطرفة. وتدل على مدىٰ خرص الباحثين والكتاب والأدباء على تراث العرب الأدبي.

وخلاصة ما يمكن قوله في موضوع الانتحال هو أن الشعر الجاهلي دخله منتحل كثير، وحدث فيه خلط ولبس، ولكن ذلك لم يكن غائباً عن العلماء القدامى وعن الرواة الثقات وعن كثيرين من الشعراء والنقاد، فأخضعوا ذلك الشعر لمقاييس وضعوها استطاعوا من خلالها تمييز الشعر الصحيح من المنحول، وشملت هذه المقاييس أموراً كثيرة لعل أهمها الرواة وما اشتهر عنهم من الدقة والصدق أو عدمهما. ومنها الظروف الزمانية والمكانية المتعلقة بذلك الشعر، ثم صيغ الشعر وألفاظه ومناسبتها لعصر ما قبل البعثة. كل ذلك أخذ في الحسبان حينما راحوا يمحصون الشعر الذي وصلهم، وفي ضوء ذلك أهملوا من الشعر ما لم يخضع لتلك المقاييس أو لم تنطبق عليه هذه الضوابط. ولذلك فإننا يمكن أن نطمئن إلى صحة معظم ما لدينا من الشعر، على أننا لا ننفي تسرب أشعار أو قصائد من الشعر المنحول ولكنها ليست من الكثرة بحيث تدفعنا

إلى الشك في معظم الشعر الجاهلي كما فعل (مرجليوث) وطه حسين، وإنما هي قليلة لا يمكنها أن تؤثر على بقية الشعر، وعليه فإننا نستطيع الاعتماد عليها لمعرفة طبيعة المجتمع العربي في ذلك العصر، والاطلاع على تقاليده وقيمه وعاداته، ونمط سلوك الأفراد وتصرفاتهم، وما يحملون من أفكار وآراء، ذلك لأن الأدب مرآة تعكس صورة المجتمع بكل أبعاده وألوانه وظلاله، ومن خلاله نستطيع الغوص في أذهان أصحابه وسبر غور نفوسهم.

أغراض الشعر وفنونه

الفرق بين الغرض والفن الشعري:

الفن: موضوع مقصود لذاته يعالجه الشاعر بتوسع، وقد يقصر عليه القصيدة كلها أو أكثرها.

والغرض: هو الموضوع الذي يعالجه الشاعر عَرَضاً في قصيدته، والأغراض أمور ممهدة للفن الذي يرمي إليه الشاعر، وكان الشاعر القديم يطرق في قصيدته أغراضاً عدة ويمرّ بها مرّا خفيفاً، إلاّ أنه يركّز على غرض واحد منها أو على غرضين يجعل منهما الموضوع الأساس المقصود من القصيدة كلها، وهو الفن الذي يرمي إلى معالجته الشاعر.

ومن هذا يتضح أن الغرض إذا تطور واتسع أصبح فناً، فالغزل ـ مثلاً ـ غرض إذا كان في أبيات قليلة وفي مطلع قصيدة تامة في المديح مثلاً، ولكنه (فن) إذا كان مقصوداً لذاته في قصيدة تامة أو شبه تامة، وقد يسمى أيضاً باباً من أبواب الشعر.

أغراض شعر ما قبل البعثة وفنونه:

تعددت الأغراض والفنون الشعرية في تلك الفترة وتنوعت الموضوعات،

فقد كان الشاعر ينظم في كل ما يتعرض له من حالات وجدانية، ويترجم ما يعتلج في داخله من انفعالات وأحاسيس إلى كلام أدبي بليغ. وهذه الحالات كثيرة ومتعددة، منها المفرح الذي يثير النشوة والطرب ويبعث على الارتياح، ومنها المحزن الذي يغطي النفس بهالة من الكآبة والغم والأسىٰ، ولكل حالة ردود فعلها التي تعبّر عنها وتخلق منها فناً أدبياً رفيعاً. ومن خلال قراءة شعر ما قبل البعثة ومدى تمثيله لتلك الحالات أمكن تقسيم أغراضه وفنونه إلى الأنواع الآتية:

1 ـ الغزل:

بدأنا بالغزل لأن الشاعر القديم كان يبدأ به قصيدته مهما كان الغرض الأساسي منها ثم ينتقل إلى الحديث عن الموضوعات الأخرىٰ من مدح وهجاء وفخر وغير ذلك.

ويبدو أنهم أدركوا من خلال التجربة أن الغزل أعلق بعقول الناس وألصق بقلوبهم، وأنه يداعب أوتار النفس البشرية ويعزف على قيثارتها أجمل الألحان، فتهتز وتطرب وتأخذها النشوة من كل جانب، فاستفاد الشعراء من ميزة الغزل هذه ولجأوا إلى شد انتباه الناس والاستحواذ على مشاعرهم بما ينشدون لهم من هذا الغزل، حتى إذا أشبعوا هذه الرغبة فيهم واطمأنوا إلى انجذابهم إليهم راحوا ينتقلون من الغزل إلى الأغراض الأخرى، ربما كانت هي الهدف الأول من نظم القصيدة.

وقد وجد الشعراء في الغزل متنفساً يستطيعون من خلاله أن يفرغوا شحناتهم العاطفية ويبسطوا أحاسيسهم ويصبوا فيه مشاعرهم ويسجلوا فيه خواطرهم، حتى غدا باباً واسعاً ضم عواطف الشعراء وانفعالاتهم الوجدانية، وأصبح فناً مستقلاً تخصص له القصائد ليبسط فيه الشاعر كل خلجات نفسه.

وكان غزلهم يدور حول المرأة وما يجدون فيها من فتنة وسحر وجمال، وما تتمتع به من مزايا خلقية ومفاتن جسدية، ومن الطبيعي أن يقترن الغزل

بالمرأة فهي العنصر الأساس فيه وعليها مداره، فهي مادته وروحه، وهي ألفاظه ومعانيه، وهي نبعه وجدوله، ولهذا فقد رسموا لها بالشعر أجمل صورة ونحتوا لها أبهى تمثال، ودققوا في وصفها فلم يتركوا شيئاً منها إلا وصفوه وتحدّثوا عنه، وكان وصف جمالها الجسدي هو الأمر الطاغي على غزلهم في ذلك العصر، إذ لم يتركوا عضواً ظاهراً من أعضائها إلا وأسبغوا عليه صفات الحسن والفتنة والجمال، أما وصف المشاعر الإنسانية والمحاسن الخلقية والعلاقات الروحية بين الرجل والمرأة فيأتي في المرتبة الثانية بعد وصف الأعضاء.

أما مقاييس الجمال الجسدي للمرأة فقد صورها أكثر من شاعر، وتدل هذه المقاييس على ذوقهم الذي يمثّل روح العصر، ومن مواصفات الجمال عندهم أن تكون المرأة دقيقة الخصر، ضامرة البطن، مملوءة الساقين، أسيلة الخدين، واسعة العينين، بيضاء اللون، طويلة العنق، طويلة الشعر، ممتلئة الذراعين، ويكاد أكثر الشعراء يشيدون بهذه الصفات، ويرونها أمارة الحسن والجمال، قال امرؤ القيس[1]:

إذا قلتُ هاتي نوليني تمايلتْ ... عليَّ هضيمَ الكشحِ ريّا المخلخلِ

مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مضاضةٍ ... ترائبُها مصقولةٌ كالسجنجلِ

تصدُّ وُتبدي عن أسيلٍ وتتقي ... بناظرةٍ من وحشِ وجرةَ مُطفلِ

وجيدٍ كجيدِ الرئمِ ليس بفاحشٍ ... إذا هي نصّتهُ ولا بمعطّلِ

وفرعٍ يزينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقنوِ النخلةِ المتعثكلِ

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العُلا ... تضلُّ المداري في مثنًى ومُرسَلِ

وكشحٍ لطيفٍ كالجديلِ مخصّرٍ ... وساق كأنبوب السقيّ المذللِ

تضيء الظلامَ بالعشاءِ كأنها ... منارةُ ممسي راهب متبتّلِ

وهناك كثير من الشعراء تناولوا هذا الوصف الدقيق لأعضاء المرأة طبقاً

---

(1) الديوان 15 ـ 18 والجمهرة 98 ـ 99.

لهذه المواصفات ولم يخرجوا عليها وصوّروها في شعرهم على أنها الأنموذج الأمثل للمرأة الجميلة، إلا أنهم اختلفوا في طريقة عرضها وفي كيفية رسم صورتها.

وتناول الشعراء الجوانب النفسية والمزايا الخلقية كالعفة والحياء والتمنّع، إلا أن ذلك لم يكن شائعاً عند كثير من الشعراء، وربما ورد ذلك في أثناء وصفهم لجمال المرأة ومفاتنها الجسدية، كما فعل الأعشىٰ حينما تحدّث عن حبيبته (هريرة) إذ جمع بين وصف أعضائها الجسدية ووصف أخلاقها الفاضلة والتي ركّز فيها على كتمان السر والحفاظ على خصوصيات الجيران وعدم إفشاء أسرارهم وقضاياهم، لهذا فهي أثيرة عندهم، محبوبة من قبلهم، قال[1]:

غـرّاءُ فـرعـاءُ مـصـقـولٌ عـوارضـهـا ... تمشي الهوينىٰ كما يمشي الوجي الوحلُ
كـأنّ مـشـيـتـهـا مـن بـيـت جـارتـهـا ... مـرُّ الـسـحـابـةِ لا ريـثٌ ولا عـجـلُ
يـكـادُ يـصـرعـهـا لـولا تـشـددهـا ... إذا تـقـوم إلـى جـاراتـهـا الـكـسـلُ
ليست كمن يكرهُ الجيرانُ طلعتها ... ولا تـراهـا لـسـرِ الـجـارِ تـخـتـتـلُ
إذا تـقـومُ يـضـوعُ الـمـسـكُ أصـورةً ... والـزنـبـقُ الـوردُ مـن أردانِـهـا شـمـلُ

فقد تحدّث الأعشى عن مفاتنها الجسدية وشبّه طيب رائحتها برائحة الزنبق ورائحة الروض الذي سقاه المطر، ثم تحدّث عن مزاياها الخلقية إلا أنه لم يقف طويلاً عندها، لم يتغلغل في خفايا النفس البشرية ليكشف عن مشاعرها وأحاسيسها وما يفعله الحب في نفس المحب من تفتحّ وانشراح، أو ما يذيقه من أسّى ولوعة إنْ صدَّ عنه الحبيب وهجره.

وربما يكون الشنفرىٰ أكثر تفصيلاً للمزايا الخلقية عند محبوبته، حيث قال فيها[2]:

---

(1) الديوان ص144.

(2) المفضليات ـ ص108 و109.

ألا أمُّ عـمـرو أجـمـعـتْ فـاسـتـقـلَّـتِ   ومـا وَدّعـتْ جـيـرانَـهـا إذْ تَـولّـتِ
لـقـد أعـجـبـتـني لا سَـقُـوطاً قِـنـاعُـهـا   إذا مـا مَـشَـتْ ولا بـذاتِ تـلـفُّـتِ
تَـحُـلُّ بـمَـنـجـاةٍ مـن الـلَّـوم بـيـتَـهـا   إذا مـا بـيـوتٌ بـالـمـلامـة حُـلّـتِ

حيث أشار إلى أنها شريفة عفيفة بعيدة عن الريب، وأنها خجول ذات جمال وأدب جم، وهي كريمة مع جيرانها، طيبة السمعة، عفّة اللسان.

وربما تناول غزلهم الحديث عن ذكريات الشاعر وما كان له من أحداث ومواقف مع أحبته، فيروح يتحدث عن قصصه الغرامية ومغامراته الغزليه، سارداً بعض الأحداث التي مرّت به، والصور الجملية التي ما زالت عالقة بذهنه، نجد ذلك كثيراً في شعر امرئ القيس وفي شعر غيره من الشعراء.

ومن الشعراء من يصور حالته النفسية وما يلقاه من شوق وهيام وحنين وما يختلج في داخله من ألم ولوعة بسبب بُعد حبيبه عنه، فهو دائم السهر لا يرقد له جفن، يفكر فيها ويتمنىٰ رؤيتها، وذلك مثل قول سويد بن أبي كاهل[1]:

بَـسَـطـتْ رابـعـةُ الـحَـبْـلَ لـنـا   فـوصـلـنـا الـحـبـل مـنـهـا مـا اتَّـسَـعْ
هـيّـجَ الـشـوقَ خَـيـالٌ زائـرٌ   مـن حـبـيـبٍ خـضـر فـيـهِ قَـدَعْ
شـاحـطٍ جـاز إلـى أرحُـلِـنـا   عُـصَـبَ الـغـابِ طُـروقـاً لـم يُـرَعْ
آنِـس كـان إذا مـا اعـتـادنـي   حـالَ دونَ الـنـومِ مـنـي فـامـتـنـعْ
وكـذاكَ الـحـبُّ مـا أشـجَـعَـهُ   يـركـبُ الـهـولَ ويَـعـصـي مـن وَزَعْ
فـأبـيـتُ الـلـيـلَ مـا أرقُـدُهُ   وبـعـيـنـيَّ إذا نـجـمٌ طَـلَـعْ
وإذا مـا قـلـتُ لـيـلٌ قـد مَـضـىٰ   عَـطـفَ الأولُ مـنـه فَـرَجـعْ

صوّر الشاعر في هذه الأبيات كيف أن خيال حبيبته رابعة زاره ليلاً فاشتد به الأرق وطار من عينيه النوم فراح سهران يرقب النجوم ويعيش مع خيال حبيبته

(1) المفضليات ـ 191 و192.

يحاوره ويتحدث إليه، ويظل على تلك الحال حتى ينقضي الليل، ثم يأتي ليل آخر لا يختلف عن سابقه.

ولما كانت حياة العرب في البادية قائمة على الرحلة والتنقل، فإن ذلك استدعىٰ رحيل أحبتهم وفراقهم والبعد عنهم، فإذا مرّ الشاعر بديار أحبته وجدها خالية مقفرة موحشة قد رحل عنها أهلها وتركوها، فتخلق عند الشاعر حالة من تداعي الذكريات الجميلة والحنين إلى تلك الأيام الخوالي التي قضاها مع أحبته في هذا المكان أو ذاك، ويروح يتحدث إلى الأطلال البالية ويسألها ويبث إليها أحزانه وآلامه، ولا يجد في تلك الديار إلا بقايا ليست بذات قيمة ولا تنفع أهلها مثل الدمن والأثافي والنؤي والجدران المتهدمة، فيقف الشاعر عندها يحييها ويتحدث معها، فليس هناك إلا هذه الأشياء ترمز إليهم وتذكره بهم. ومن هنا ارتبط ذكر الطلل بالغزل وأصبح لازمة من لوازمه. ولعل هذا أقدم صور الغزل التي نجدها عند الشعراء القدامى. وحسبنا أن نشير إلى أن تسعاً من المعلقات العشر افتتحت بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار، ويبدو أن ارتباط الأطلال بالغزل قديم، إذ أن أول صورة غزلية تلقانا في قصائدهم هي بكاء الديار التي رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى التي شدهم الحنين إليها فوقفوا يبكونها بكاءً حاراً فيه لوعة وحنين، حتى شاع ذلك بينهم وأصبح عادة يتبعها معظم الشعراء في أثناء نظم قصائدهم، وقد أصبح تقليداً موروثاً يلتزم به الشاعر سواء أكان عاشقاً أم لم يكن، وسواء أَوقَف على الأطلال حقيقة أم لم يقف، فإن خياله يسعفه في رسم صورة الأطلال البالية، ويتوهم اسماً لحبيبةٍ يناجيها ويخاطبها ويتحدث عنها وقد سمي هذا النوع من الغزل فيما بعد ـ بالغزل التقليدي ـ ومن أمثلته قول النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقفت فيها أصيلاً كي أسائلها ... عيّت جواباً وما بالربع من أحد

وهذا يبين مدى شغفهم وولعهم بالغزل حتى جعلوه أول موضوع يفتتحون

به قصائدهم ويركّزون حديثهم على شيء لصيق به وتابع له وهو الوقوف على الأطلال وبكاء الديار.

وكانت هناك ألفاظ عدة تستخدم في هذا الفن وهي: الغزل والنسيب والتشبيب ـ ويبدو أنها كانت مترادفة تؤدي معنى واحداً وهو محادثة النساء ونظم الشعر فيهن ووصفهن والحديث عن العلاقة بهن. إلا أن بعض الباحثين ومنهم قدامة بن جعفر قد فرقوا بين مدلول هذه الألفاظ فقالوا: إن الغزل هو: الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن والنسيب: هو ذكر ذلك في الشعر والخبر عنه، والتشبيب مثل النسيب. والشائع عند الأدباء أن هذه الألفاظ الثلاثة تشير إلى معنى واحد.

2 ـ الحماسة:

الحماسة فن الحرب والقتال والتغني بالبطولة والشجاعة، ودعوة للأخذ بالثأر ووصف لما يدور في سوح المعارك من ضرب وطعن وكر وفر، وبسبب كثرة حروبهم التي كانت تستدعي التغني ببطولاتهم وانتصاراتهم فقد أصبحت الحماسة أهم الأغراض التي تناولها شعراء ما قبل البعثة لأنها تعبر عن قيم ومثل تعارف عليها العرب تمشياً مع ماكانت تستدعيه بيئتهم وطبيعتهم من الاتصاف بالقوة والشجاعة والبطولة، إذ لا مكان للجبان في مجتمع لا يعترف إلا بالقوة. ولعل هذا ما دفع أبا تمام إلى أن يسمي المجموعة الشعرية التي اختارها من أشعار القدماء باسم (الحماسة) وهو الباب الأول في مجموعته، كما تابعه في هذه التسمية البحتري وابن الشجري وآخرون.

وقد سطر الشعراء من خلال شعر الحماسة بطولاتهم وأمجادهم ومفاخرهم، حتى أصبح لشعر الحماسة النصيب الأوفر في الدواوين والمجاميع الشعرية مثل المفضليات والأصمعيات والوحشيات وكتب الحماسة.

ويظهر في شعر الحماسة صدق التعبير الفني عن الحالة الوجدانية التي يكون عليها الشاعر فهو من أصدق الأشعار وأشدها تأثيراً في النفوس، لأن

معظم الذين نظموا في هذا الغرض كانوا فرساناً يشاركون في القتال ويخوضون غمار المعارك التي منها يستمدون معانيهم الشعرية وصرخاتهم الحماسية من مثل قول عمرو بن كلثوم في معلقته[1] :

متى ننقل إلى قوم رحانا ... يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثقالها شرقي نجد ... ولهوتها قضاعة أجمعينا
نطاعن ما تراخى الناس عنا ... ونضرب بالسيوف إذا غُشينا
بسمر من قنا الخطي لُدن ... ذوابل أو ببيض يعتلينا
نشق بها رؤوس القوم شقاً ... ونخليها الرقاب فتختلينا
كأن جماجم الأبطال فيها ... وسوق بالأماعز يرتمينا
ونحن إذا عماد الحي خرت ... على الأحفاض نمنع من يلينا
نجذ رؤوسهم في غير وتر ... فما يدرون ماذا يتقونا

فالشاعر ـ هنا ـ يتهدد ويتوعد ويحذر وينذر من يفكر في قتال قبيلته، بني تغلب حيث سيكون مصيره الفناء والهلاك ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح حيث ستفلق رؤوسهم وتقطع رقابهم، وشبيه بهذه الحماسة المتأججة قول الحصين ابن الحمام واصفاً المعركة التي خاضها مع قومه وما فعلوه بأعدائهم[2] :

صبْرنا وكانَ الصبرُ منّا سَجيةً ... بأسيافنا يَقطعْنَ كفّاً ومِعْصَما
يُفلّقنَ هاماً من رجالٍ أعِزّةٍ ... علينا وهم كانوا أَعقَّ وأظلما

وكان أشد ما يغيضهم أن يقتل منهم قتيل فحينئذ تثور القبيلة ويشتد غضبها وتهيج هياجاً لا حدّ له، ويروح شعراؤها يحرّضون على الأخذ بالثأر والانتقام من القاتل ولا تهدأ حتى تأخذ بثأرها وتنتقم من واتريها، وفي هذا المجال كان للشاعر دور كبير في إثارة حماسة قومه وحثهم على القتال ودفعهم إلى

(1) جمهرة أشعار العرب ص142 وما بعدها، وشرح المعلقات السبع ـ الزوزني ص 134 وما بعدها، والديوان ص 72 وما بعدها.

(2) المفضليات ص65.

الاستبسال في ساحات المعارك، فإذا أحرز قومه نصراً راح يفتخر ويتغنّى ببطولاتهم وبلائهم في الحروب مدفوعاً بفكرة الأخذ بالثأر التي طبعت كثيراً من جوانب حياتهم بطابع القوة والشدة واستقبال القتل بنفسية عالية لا ترىٰ فيه إلا شجاعة نادرة وبطولة فائقة لا سيما إذا كان من أجل الدفاع عن القبيلة وحماية حقوقها ومصالحها والأخذ بثأرها، قال أحد شعرائهم مشيراً إلى ذلك:

وإنا لقوم لا نرى القتل سُبة ... إذا ما رأته عامر وسلول

فالقتل في سوح المعارك شرف لا يدانيه شرف، وعز يطلب الفارس أن يناله، وبطولة يتمنىٰ كل رجل الاتصاف بها.

ولعل أشهر شاعر وفارس هو عنترة بن شداد العبسي الذي أصبح مثالاً للشجاعة والفروسية حتى نُسجت حوله القصص والأساطير، لما كان له من دور كبير في الدفاع عن قومه وصد هجوم الأعداء عليهم، وقد تجسدت روح الفروسية بأبهىٰ صورها عنده، فقد أضاف إلى الشجاعة عزة النفس والإباء والاعتراف للخصم بالقوة والشدة، يقول في ذلك[1]:

يخبرك مِن شهد الوقيعة أنني ... أغشىٰ الوغىٰ وأعفُّ عندَ المغنم

ومدجج كرِه الكُماةُ نزالَهُ ... لا ممعنٍ هرباً ولا مستسلم[2]

جادت يداي لهُ بعاجلِ طعنةٍ ... بمثقفٍ صَدِقِ الكعوب مقوَّمِ[3]

فقد أضفىٰ على خصمه مظاهر القوة والثبات ليخلص بعد ذلك إلى تفوقه على هذا الخصم العنيد.

ولقد لعبت النساء دوراً بارزاً في إثارة روح الحماس لدى المقاتلين سواء بالشعر أم بغير الشعر، وكن يحرضن الرجال على طلب الثأر والانتقام لمن قُتل لهن من الرجال ولا يرضين بأخذ دية القتيل، بل كن يساعدن على إشعال نار

---

(1) ديوان عنترة ص207 وما بعدها والجمهرة ص166.

(2) المدجج: الذي قد توارى بالسلاح، الكماة: الشجعان.

(3) المثقف: الرمح، صدق: صلب، الكعوب: عقد الأنابيب، مقوم: قوّم من الاعوجاج.

الحرب بالبكاء والعويل والصراخ والندب، وبما ينشدنه من أناشيد حماسية يثرن بها غيرة المقاتلين لتحفيزهم على مواصلة القتال وعدم الهروب من حومة الوغىٰ. وهذا أحد الأهداف التي كانوا يتوخونها من اصطحاب النساء معهم إلى الحروب بالإضافة إلى إعداد الطعام ومداواة الجرحىٰ وتهيئة مستلزمات الحرب وما يحتاجه الرجال فيها، ونذكر بعض النسوة اللاتي كان لهن شأن كبير في إطالة أمد الحرب، وأشهرهن الخنساء ومراثيها كثيرة في أخويها صخر ومعاوية وفي ندبهما والتحريض على الأخذ بثأرهما، ومنهم كبشة بنت معد يكرب الزبيدي التي رثت أخاها عبد اللّه وبكته بكاء حاراً وناشدت أخاها (عمرو) وقومها على أن لا يناموا عن الأخذ بثأره، ومنهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان التي خرجت في معركة أحد مع المشركين وكانت تنشد الأناشيد الحماسية لدفع قومها إلى الثبات في هذه المعركة والأخذ بثأر أبيها وأخيها ومن قتل معهم في معركة بدر، وأكبر عار يلحق القبيلة أن تسبىٰ نساؤها، لذلك تثور ثائرة القبيلة ولا يهدأ لها بال إلا أن تعيد نساءها باذلة كل ما لديها من قوة وشجاعة لتعيد لها كرامتها ولتستقر نفوس أبنائها ولتشعر بالفخر والاعتزاز.

3 ـ الفخر:

هناك تلازم وارتباط بين الفخر والحماسة، لأن أحلى فخر عندهم هو التغني بالشجاعة والبطولة والفروسية، ثم يأتي بعد ذلك التغني بالفضائل الحميدة مثل المروءة والكرم وغير ذلك، وهذه الفضائل النفسية والخصال الخلقية هي التي تجعل الفخر محبباً قريباً إلى النفوس، لأنه يتحدث عن أمور معنوية ويبتعد عن الأمور المادية، وقد مرّت بنا قصيدة عمرو بن كلثوم في غرض الحماسة وفيها فخر شديد بنفسه وبقبيلته حتى جعلها فوق القبائل الأخرى، وقد ظل بنو تغلب يرددون هذه القصيدة في كل محفل بعد أن حفظوها وبالغوا في إنشادها حتى هجاهم أحد الشعراء لكثرة إلحاحهم في إنشاد هذه القصيدة فقال[1]:

---

(1) الأغاني 11/ 54.

ألهىٰ بني تغلبٍ عن كلِّ مكرُمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بنُ كلثومِ
يفاخرونَ بها مذْ كانَ أولهم يا لَلرجالِ لشعرٍ غيرِ مسئومِ

ويبدو أن الفخر والحماسة فطرة في العرب وقد جبلوا عليهما، فأولعوا بهما ولعاً شديداً فلا يكاد أحدهم يأتي فعلاً حميداً أو عملاً شريفاً أو يظهر بطولة فائقة حتى ينبري شعراء قبيلته لتمجيد هذا العمل والتغني بهذه المفاخر في شعر حماسي يثلج قلوب أبناء العشيرة ويملؤهم فخراً وتباهياً وفي الوقت نفسه يملأ قلوب الأعداء خوفاً ورعباً، حينئذ يحس الشاعر بنشوة الفخر والانتصار ويظل متغنياً بالفضائل الحميدة والمثل العليا والإشادة بالخصال الخلقية والمحامد النفسية.

وكان الفارس الذي يتغنىٰ ببطولته وانتصاره لا يبخس الخصم حقه إذ أن روح الفروسية كانت تدفع الشاعر إلى الاعتراف بشجاعة الخصم وقوته وبسالته، وهذا ما ظهر عند كثير من الشعراء من أمثال عنترة بن شداد العبسي والعباس بن مرداس والطفيل الغنوي وعبد الشارق بن عبد العزى وغيرهم، وقد سمي هذا النوع من القصائد بـ(المنصفات) حيث أنصف قائلوها أعداءهم فذكروا صبرهم في الحرب وحسن بلائهم، واعترفوا لهم بالشجاعة وشدة البأس وأن الحرب سجال مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء، ومن شعر الإنصاف هذا قول المفضل النكري يصف موقعة بين عشيرته وعشيرة عمرو بن عوف[1]:

كأن هزيزنا يوم التقينا هزيز أَباءة فيها حريق[2]
وكم من سيد منا ومنهم بذي الطرفاء منطقه شهيق[3]
فأشبعنا السباع وأشبعوها فراحت كلها تئق يفوق[4]

(1) الأصمعيات/ 233.
(2) الهزيز: الصوت، الأباءة: أجمة الغاب.
(3) ذو الطرفاء: موضع المعركة.
(4) تئق: ممتلئ، يفوق: يأخذه البهر.

فـأبـكـيـنـا نـسـاءهـم وأبـكـوا نـسـاء مـا يـسـوغ لـهـن ريـق

يـجـاوبـن الـنـيـاح بـكـل فـجـر فقد صحلت من النوح الحلوق[1]

فهو يصف هول ما حدث بينهم حيث سقط القتلى من الفريقين، وراحت نساء كل قبيلة باكية نائحة حتى بُح صوتهن من النواح، وجاءت السباع فشبعت من جثث القتلىٰ، ويلاحظ أنه كان صريحاً وصادقاً في هذا الوصف فلم يقل أن قومه انتصروا ولم يقتل منهم أحد وأنهم دمروا العدو في أول لقاء، بل قال أن المعركة حامية الوطيس وأن القتلى بدأوا يتساقطون من الجانبين، وأن كل فريق أظهر ما عنده من البطولة والشجاعة.

ويُلاحظ أنّ فخرهم لم يقتصر على تغنيهم بالشجاعة والحماسة، وإنما كانوا يفخرون أيضاً بالفضائل والمثل العليا والصفات الحميدة والفعال المجيدة مثل الكرم والمرؤة وإغاثة الملهوف وحماية الجار وعراقة الأصل والنسب الرفيع، والوفاء بالعهد والابتعاد عن الرذائل، من ذلك قول ربيعة بن مقروم[2]:

وإن تـسـألـيـنـي فـإنـي امـرؤٌ أُهـيـنُ الـلـئـيـمَ وأحـبـو الـكـريـمـا

وأبـنـي الـمـعـالـيَ بـالـمـكـرُمـاتِ وأُرضِـي الـخـلـيـلَ وأروي الـنـديـمـا

وأَجـزي الـقُـروضَ وَفـاءً بـهـا ببـؤسىٰ بـئـيـسَ ونُـعـمىٰ نعـيـمـا[3]

فهو يَقدم على كل عمل فيه خير ومكرمة ويبتعد عن مصاحبة اللئام ولا يرضى بصنيعهم ويجازي الناس بما يوازي أعمالهم في مجال الخير أو الشر. ومن قصائد الفخر المشهورة معلقة عمرو بن كلثوم التي أشاد فيها بانتصارات قومه في المعارك والحروب وما فعله بعمرو بن هند ملك الحيرة. حيث قتله في

(1) صحلت: بحت.
(2) المفضليات ص183.
(3) يريد أن يقول: إنه يجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة مثلها.

عقر داره وبين أهله وقومه، مما دفعه إلى الغلو والمبالغة في هذا الفخر فجعل الناس خدماً وعبيداً لقومه. ومن ذلك قوله[1]:

أبا هندٍ فلا تعجلْ علينا ... وأمهلنا نخبّرْكَ اليقينا
بأنّا نُوردُ الراياتِ بيضاً ... ونصدرهنَّ حمراً قد روينا
وأيامٍ لنا غرٌّ طوالٍ ... عصينا الملكَ فيها أنْ ندينا
وقد عَلِمَ القبائلُ من معدٍّ ... إذا قببٌ بأبطحها بُنينا
بأنّا المطعمونَ إذا قدرنا ... وأنّا المهلكونَ إذا ابتلينا
وأنّا المانعونَ إذا أردنا ... وأنّا النازلون بحيثُ شينا
وأنّا التاركون إذا سخطنا ... وأنّا الآخذون إذا رضينا
وأنّا العاصمون إذا أطعنا ... وأنّا العازمون إذا عُصينا
ونشربُ إنْ وردنا الماءَ صفواً ... ويشربُ غيرُنا كدراً وطينا
ملأنا البرَّ حتى ضاقَ عنا ... وماءُ البحرِ نملؤهُ سفينا
إذا بلغَ الفطامَ لنا صبيٌّ ... تخرُّ لهُ الجبابرُ ساجدينا
متى ننقلْ إلى قومٍ رحانا ... يكونوا في اللقاءِ لها طحينا
ورثنا المجد قد علمتْ مَعدٌّ ... نطاعنُ دونَهُ حتى يبينا

وقد راح في هذه المعلقة يفتخر ويصيح بصوت عالٍ متغنياً بما أسبغه على قومه من صفات العزة والكرامة والمجد والإباء والشرف والسيادة حتى وضعهم في مكانة لا يدانيهم فيها أحد، ولهذا فقد حفظها أفراد قبيلة تغلب وراحوا يرددونها وينشدونها في كل محفل بمناسبة وبدون مناسبة.

---

(1) شرح المعلقات السبع ـ الزوزني ص134 وما بعدها بيروت 1958 دار صادر ـ بيروت. والجمهرة ص141 وما بعدها. والديوان ص71 وما بعدها.

وعلى هذه الشاكلة تمتزج الحماسة والفخر لدى الشاعر العربي فيقترن التهديد والوعيد والدعوة إلى الانتقام بالفخر والمباهاة بما حققوه من انتصارات وبطولات فيما سبق من الوقائع والحروب.

4 ـ الرثاء:

قد يكون لغرض الرثاء ارتباط بغرض الحماسة، ذلك لأنهم حينما يسقط منهم قتلىٰ يرثونهم بقصائد حماسية يمجدون فيها قتلاهم ويذكرون صفاتهم الحميدة ومناقبهم الجليلة ويدعون أبناء قبيلتهم للأخذ بثأرهم والانتقام من قتلتهم، وكان من عادتهم أن يبتعدوا عن ملذات الحياة من الطيب والخمر والنساء حتى يشفوا غليلهم من واتريهم ويأخذوا بثأر قتلاهم.

وفن الرثاء تعبير عن حالة الحزن والأسىٰ التي يعاني منها أهل القتيل وأقاربه وهو من الأغراض التي تعبّر تعبيراً صادقاً عن المعاناة التي تعتمل في داخل الشاعر دون تكلف أو زيف أو مطمع، فقلب الشاعر يتقطع حزناً وألماً وتخنقه العبرات والآهات الحرّى إثر موت عزيز عليه فلا يجد إلا الشعر لينفّس به عن مكنون قلبه وليفرغ تلك الشحنة المؤلمة ويصوغها شعراً جميلاً يثير المشاعر ويهز الوجدان، مظهراً لوعته لفراق هذا العزيز متفجعاً عليه معدداً خصاله الكريمة ومشيداً بصفاته الحسنة ومناقبه الرائعة.

ويقسّم بعضُ الباحثين الرثاء إلى ثلاثة أنواع:

أ ـ التأبين:

وهو الإشادة بخصال الميت وذكر فضائله الحسنة وصفاته الحميدة، حتىٰ يسبغوا على الميت كثيراً من المثل والقيم التي يعجب بها الناس ويرونها أمارة الشرف وعلو المنزلة، مثل الكرم والشجاعة وحماية الجار وإغاثة الملهوف والوفاء بالعهد وما إلى ذلك، وغالباً ما يذكرون ذلك عند اجتماعهم في مجالسهم العامة أو الخاصة، أو في مجلس خاص يعقد لتخليد ذكرىٰ الفقيد.

ب ـ الندب:

وهو الشعر الذي يقال في المناحات التي تقام للميت، حيث كانت النساء يجتمعن في بيت الميت أو بيت أهله ويُقمن مناحة صاخبة فيها بكاء وصراخ ولطم الوجوه والصدور، وعويل بألفاظ حزينة شديدة الوقع والتأثير، قال الربيع ابن زياد واصفاً إحدى تلك المناحات التي أقيمت إثر مقتل مالك بن زهير[1]:

مَنْ كانَ مسروراً بمقتلِ مالكٍ فليأتِ ساحتَنا بوجهِ نهارِ
يجد النساءَ حواسراً يندبْنَهُ يلطمنَ أوجهَهنَّ بالأسحارِ
قد كُنَّ يخبئنَ الوجوهَ تستراً فاليومَ قدْ أبرزنَ للنظارِ
يَضربنَ حُرَّ وجوهِهنَّ على فتًى عفِّ الشمائلِ طيّبِ الأخبارِ

وقد برعت النساء في ندب الميت والتفجع عليه بشعر حزين يستمطر الدموع من العيون، ولعل فارسة هذا الضرب من النساء الشاعرة الخنساء التي ظلت تنوح على أخويها صخر ومعاوية مدة طويلة، وكان لها فيهما شعر يدمي القلب ويقرّح الجفون معبّراً عن لوعة شديدة كانت تعصر قلب الخنساء من ذلك قولها في ندب أخيها صخر[2]:

قذىً بعينيك أمْ بالعينِ عُوّارُ أمْ ذرّفتْ إذا خلتْ من أهلِها الدارُ
كأنّ عيني لذكراهُ إذا خطرتْ فيضٌ يسيلُ على الخدّينِ مدرارُ
فالعينُ تبكي على صخرٍ وحقَّ لها ودونَهُ من جديدِ الأرضِ أستارُ
تبكي خناسُ وما تنفكُّ ما عمرتْ لها عليهِ رنينٌ وهي مقتارُ

ج ـ العزاء:

وهو تعزية النفس بما أصاب ويصيب الآخرين من فقدٍ وحزن ولوعة، والتفكير في هذه الحياة التي لا تدوم لأحد، وأن الحياة رحلة يقطعها الإنسان

(1) شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي 2/ 995.

(2) ديوان الخنساء ـ ص 73.

ويصل إلى نهاية الرحلة، فالموت حتم مؤجل يصيب جميع الناس ولا يسلم منه أحد، والإنسان ضيف أمام نوازل الدهر ومصائبه، فعليه أن يستسلم للقدر ويقنع بما يصيبه، ويصبر على ما حلّ به، ففي مصائب الآخرين تخفيف لمصائبنا ولعل هذا ما عبّرت عنه الخنساء حينما وجدت الباكين حولها كثيرين فقالت مسلية نفسها[1]:

ولولا كثرةُ الباكينَ حولي   على إخوانِهم لقتلتُ نفسي
ولكنْ لا أزالُ أرى عجولاً   ونائحةً تنوحُ ليومِ نحسِ[2]
هما كلتاهما تبكي أخاها   عشيةَ رزئهِ أو غِبَّ أمسِ[3]
وما يبكونَ مثلَ أخي ولكن   أسلّي النفسَ عنهُ بالتأسّي

إن أنواع الرثاء الثلاثة هذه قد تتداخل في كثير من قصائد الرثاء فيندب الشاعر ويؤبن ويعزّي في قصيدة واحدة.

ويكاد الرثاء يكون من أكثر الفنون الشعرية التي أجادت فيها النساء، نظراً لما تتمتع به المرأة من عاطفة جيّاشة بحيث لا تستطيع أن تكتم حزنها ولوعتها على الفقيد فتصوغ ذلك الأسىٰ شعراً رثائياً حزيناً.

وديوان الخنساء خير دليل على ذلك، ومثلها هند بنت عتبة وكثيرات غيرهن، فقد زخرت قصائدهن بالنحيب والعويل والبكاء وإظهار اللوعة والأسىٰ على الفقيد الذي سبب لهن خسارة كبيرة وجرحاً عميقاً وفراغاً لا يسدّه أحد من الناس، فقد كان هذا الفقيد عوناً ومساعداً ومؤازراً لهن في مسيرة الحياة، وكانت صفاته الحسنة وخلقه الكريم مخففاً لأعباء هذه المسيرة. فلما فقدنه فقدن فيه الطيبة والكرم والشجاعة والحماية.

وشعر الرثاء ـ في معظمه ـ صادق في تصويره لحزن الشاعر ولوعته،

---

(1) ديوان الخنساء ص84 ـ 85.
(2) وفي رواية: باكية ـ بدل ـ نائحة.
(3) وفي رواية: أراها والهاً ـ بدل ـ هما كلتاهما.

ولأنه صادر عن قلب حزين قطّعته فجيعة أليمة، فهو يندفع إلى تصوير تلك الفجيعة بتلقائية وعفوية، دون أن ينتظر جزاء من أحد أو أن يثاب على هذا الشعر بمال أو جاه، ولهذا عُدّ غرض الرثاء أكثر الأغراض الشعرية صدقاً وأكثرها واقعية في التعبير عن المعاناة النفسية التي تسيطر على الشاعر.

وإذا كانت النساء مشهورات بشدة جزعهن وإظهار لوعتهن وحزنهن فإن الرجال ـ في بعض الأحيان ـ يفعلون مثل ذلك في رثائهم لمن فقدوا، وإن كانوا أقل جزعاً من النساء، لجلدهم وصبرهم وتحمّلهم، ولأنهم يكبتون حزنهم ولوعتهم في داخلهم ولا يظهرونها إلا إذا اشتدّ بهم الحال.

ومعظم الرثاء في تلك الفترة كان متوجهاً إلى الرجال، أما رثاء من فُقِد من النساء فكان قليلاً، وكان رثاء النساء ـ لا سيما الزوجات والأمهات ـ يدور حول ذكر الصفات الحميدة التي كانت المرأة تتحلىٰ بها مثل الوفاء والطيبة والحنان والصحبة الحسنة وبرّ الأهل والأقارب، ومن نماذج هذا الشعر قول عمرو بن قيس المرادي في رثاء زوجته سعدى[1]:

سُعيد قومي على سُعدى فبكّيها فلستِ محصيةً كلَّ الذي فيها

في مأتمٍ كظباءِ الروضِ قد قرحتْ من البكاء على سعدى مآقيها

فقد خاطب ابنته (سعيدة) لتقوم بمناحة كبيرة تؤبن فيها الفقيدة التي فيها من الخلال الكريمة ما لا يمكن إحصاؤه.

ومن أطرف صور الرثاء أن يرثي الشاعر نفسه عند وقوعه في شدة أو إحساسه بدنو أجله، فيذهب به خياله إلى العالم الآخر ليتصور ما سيكون عليه حاله بعد وفاته، فينوح على نفسه ويبكيها، وهذا ما فعله الممزق العبدي حين قال[2]:

هل للفتىٰ من بناتِ الدهر من واقِ أمْ هلْ لهُ من حِمامِ الموتِ من راقِ

---

(1) معجم الشعراء ـ المرزباني ص56تح ـ كرتكو ـ لبنان.

(2) المفضليات ص300.

قد رجّلوني وما رُجّلِتُ من شَعَثٍ ... وألبسوني ثياباً غير أَخلاقِ
ورفّعوني وقالوا أيُّما رجلٍ ... وأدرجوني كأني طميٌّ مِخراقِ
وأرسلوا فتيةً من خيرِهم حَسباً ... ليسندوا في ضريحِ التربِ أطباقي
هوّنْ عليكَ ولا تَوْلَعْ بإشفاقِ ... فإنما مالُنا للوارثِ الباقي
كأنني قد رماني الدهرُ عن عُرُضٍ ... بنافذاتٍ بلا ريشٍ وأفواق

إنه يقول أن لا أحدَ يسلم من الموت، ثم يصوّر كيف سيضعونه في كفنه بعد أن يرجلوا شعره ثم يحملونه في نعش ويضعونه في حفرة ويهيلون عليه التراب، ثم يغادرونه ويتركونه وحيداً.

إن رثاء النفس ظل يدور في الشعر العربي حتى بعد هذا العصر، فقد كانت هناك مرثيات عدة للشعراء يرثون بها أنفسهم، ولعل مرثية مالك بن الريب التميمي التي قالها حينما نهشته أفعى وكان غازياً في جيش سعيد بن عثمان بن عفان في أرض فارس من أروع ما قيل في رثاء النفس.

5 ـ المديح:

وهو من الموضوعات المهمة وباب من الأبواب الواسعة الذي طرقه معظم شعراء عصر ما قبل البعثة وقد حاول قدامة بن جعفر أن يردّ الشعر إلى موضوعين مهمين هما: المديح والهجاء، وأن يدخل في موضوع المديح أغراضاً أخرى كالغزل والرثاء والفخر، حيث يرى أن هذه الأمور كلها مديح، فالغزل مديح للمرأة والرثاء مديح للميت والفخر مديح الشاعر وقومه. وكانت أشعار المديح كثيرة حيث كانوا يمدحون ساداتهم وأفراد قبائلهم البارزين ثم يثنون على القبيلة كلها بالتعظيم والتبجيل ويتخذون من الفضائل الكريمة والخصال الحميدة صفات يسبغونها على الممدوح والتي تتمثل في العزة والشجاعة والإباء وإكرام الضيف وإغاثة الملهوف ورعاية حقوق الجار وبلوغ أعلى درجات المجد والسؤدد، وإذا قام بعض السادة بفعل حميد أو عمل شريف انبرى الشعراء لمدحه وتمجيده لا سيما إذا كان هذا الفعل مع أبناء القبائل الأخرى غير قبيلته، كأن يفك أسيراً أو

يغيث ملهوفاً، أو يناصر مظلوماً، كما فعل الشاعر المثقب العبدي حينما مدح خالد بن أنمار الذي فك أسر ابن أخت المثقب، وكما فعل زهير بن أبي سلمى حينما مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين أصلحا بين قبيلتي عبس وذبيان وأنهيا حالة الحرب بينهما وتحملا ديّات القتلى التي بلغت ثلاثة آلاف بعير أديّاها في ثلاث سنين. ومما قاله فيهما[1]:

يميناً لنعم السيدان وجدتما   على كل حال من سحيل ومبرم

تداركتما عبساً وذبيان بعدما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وقد قلتما أن ندرك السلم واسعاً   بمالٍ ومعروف من القول نسلم

فأصبحتما منها على خير موطن   بعيدين فيها من عقوق ومأثم

عظيمين في عليا معد وغيرها   ومن يستبح كنزاً من المال يعظم

وكان المدح في أول أمره صادقاً نابعاً من إحساس بفضيلة أو شعور بمعروف أو عملٍ حميد قام به الممدوح فاستحق هذا التعظيم، وظل على هذه الحال ردحاً من الزمن حتى تغيرت دوافع المدح بعد أن أعطى الممدوحون الهدايا والهبات للشعراء المادحين، فطمع الشعراء وأحسوا بطيب هذه الهدايا، فاندفعوا إلى مديح الملوك والأمراء والسادة يثنون عليهم ويدفعونهم إلى العطاء دفعاً بما يثيرون في نفوسهم من مكامن الغرور، وما يسبغون عليهم من جميل الصفات صدقاً أو كذباً طمعاً في الحصول على الهدايا النفيسة والأموال الكثيرة، وفي نهاية عصر ما قبل البعثة اتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب، وبذلك برزت ظاهرة (التكسب بالشعر) وراح الشعراء يقدمون على السادة البارزين وعلى ملوك المناذرة في العراق وملوك الغساسنة في الشام يمدحونهم وينالون جوائزهم وراحوا يبالغون في هذا المدح مبالغة شديدة حتى يحققوا ما يريدون من التأثير في ممدوحيهم. وأبرز هؤلاء الشعراء زهير بن أبي سُلمىٰ الذي اختص بمديح أشراف قبيلته، وحسان بن ثابت الذي اختص بمديح الغساسنة ولكنه انقطع عنهم

(1) الجمهرة ص107.

بعد مجيء الإسلام واتجه إلى مدح الرسول الكريم ﷺ والدعوة الإسلامية ومما قاله في الغساسنة:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم   لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم   شم الأنوف من الطراز الأول

والنابغة الذبياني كان يمدح المناذرة في الحيرة ومما قاله في الملك النعمان ابن المنذر[1]:

ألم ترَ أن الله أعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب
بأنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

ولما وقع بعض قومه أسرى في أيدي ملوك الغساسنة راح النابغة يمدحهم أملاً في إطلاق سراح أسرى قومه. ولما سمع النعمان بمدح النابغة لملوك الغساسنة غضب عليه، فراح النابغة يطلب صفحهُ ويقدم له قصائد الاعتذار وهي أروع ما قاله الشعراء في هذا الباب، وأخيراً عفا عنه النعمان فعاد إليه يمدحه. وظل في بلاطه حتى موت النعمان. وكان بلاط النماذرة في الحيرة يعج بالشعراء الذين كانوا يفدون عليهم يمدحونهم ويعودون إلى أهليهم محملين بالهدايا النفيسة وكأنما أصبح بلاطهم منتدى أدبياً يرتاده الشعراء لتدبيج قصائد المديح، ومن الشعراء الذين رحلوا إليهم طرفة بن العبد وخاله المتلمس والمسيّب بن علس والممزق العبدي والمنخل اليشكري.

وصار المديح عند الأعشىٰ حرفة يتكسب بها، فكان يرحل إلى السادة والملوك يمدحهم ويرفع شأنهم أملاً في نيل الأموال الطائلة، ولهذا عُدّ أول من سأل بالشعر واستجدىٰ بالقريض واتخذه متجراً يطوف به البلاد، من مثل قوله في مدح هوذة بن علي سيد بني حنيفة[2]:

إلى هوذة الوهّابِ أهديتُ مِدحتي   أرجّي نوالاً فاضلاً من عطائكا

(1) الديوان ص25.

(2) الديوان ص131.

سمعتُ برحبِ الباع والجودِ والندى | فأدليتُ دلوي فاستقتْ برشائِكا
وأنت الذي عوّدتني أن تريشني | وأنتَ الذي آويتني في ظلالكا
فإنكَ فيما نابني بي موزّعٌ | بخيرٍ وإني مولعٌ بثنائكا
وما ذاكَ إلا أنّ كفيكَ بالندى | تجودانِ بالإعطاء قبلَ سؤالكا

وهو في هذه الأبيات يبالغ كثيراً في المديح، ويمزج ذلك بالإلحاح في السؤال وطلب النوال، وقد يكون الأعشىٰ قد فاق شعراء عصره في ذلك، إذ أن كثيراً من شعراء المديح لم يهبطوا إلى هذا المستوى.

وهكذا نرى أن دوافع المديح وبواعثه اختلفت وتعددت ولم تعد كما كانت عليه أول الأمر نابعة من إحساس صادق بأن الممدوح يستحق الثناء لما قام به من أفعال الخير.

6 ــ الهجاء:

وهو إلحاق الأذى بالخصم عن طريق إلصاق الصفات الذميمة به، وقد استخدمه الشعراء منذ زمن قديم سلاحاً في وجه خصومهم، لا سيما قبل المعارك وفي أثنائها وحتى بعد انتهائها.

وهو لا يقلّ أهمية عن السيوف والرماح والنبال، إذ أنه سلاح معنوي، وهو أقوى وأشد من السلاح المادي. وقديماً قال الشاعر في هذا المعنىٰ:

جراحات السنان لها التئام | ولا يلتام ما جرح اللسان

كما قالوا في أمثالهم العربية (جرح اللسان أنكىٰ من جرح السنان) أي أشد وقعاً وإيلاماً.

والخلافات موجودة بين الناس منذ أن خُلقوا، والحسد مغروس في نفوسهم، وإن تفاوت قوةً وضعفاً من شخص لآخر، وهذه الخلافات وهذا الحسد هما اللذان يدفعان إلى الهجاء ويهيئان له أسبابه ودواعيه، والهجاء عكس المديح وضده، فإذا كان المديح يضفي على الممدوح صفات الخير والفضيلة

بكل صنوفها، فإن الهجاء يسحب هذه الصفات من المهجو ويجرّده منها ويضع بدلها ما يناقضها من صفات اللؤم والشرّ والسوء.

وإذا كانوا يمدحون الرجل بالشجاعة والكرم والوفاء بالعهد وحماية الجار وإغاثة الملهوف، فإنهم حينما يذمّون يصفون المهجو ـ فرداً كان أو قبيلة ـ بالجبن والقعود عن طلب الثأر والبخل والاستهانة بالجار وعدم حمايته، وقد يذهبون أبعد من ذلك فيطعنون في الشرف ويتعرضون للنساء بالسوء ليلحقوا بخصومهم العار الذي لا يُمحىٰ.

وقد تكون نشأة الهجاء مرتبطة بالعصبيات القبلية وما يتصل بها من حرب وثارات وأحقاد فيكون الهجاء أثراًمن آثار حبّ الانتقام والتشفّي. وقد قرنوا بين الشر الذي يتركه الهجاء في النفوس والشر الذي يخلّفه السحر، فكلاهما ينحو منحى المصيبة، ولهذا كان الشعراء يلبسون ثياب السحرة ويجعلون أشكالهم شبيهة بأشكال السحرة ليبعثوا الخوف والرعب في نفوس المهجوين، كما فعل لبيد حين هجا الربيع بن زياد في مجلس النعمان بن المنذر.

وقد كانوا يتطيرون من الهجاء ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه وشرّه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لأنّ الشاعر إذا هجاهم وأصلق بهم سَوءةً فإنها تظلّ لصيقةً بهم حتى لو كان الشاعر كاذباً مفترياً. ومن ذلك ما قيل عن بني العجلان من أنهم كانوا يتباهون بلقب جدّهم العجلان الذي لُقب به لتعجّله في قِرىٰ الأضياف، وكانوا شديدي الفخر بذلك حتى هجاهم قيس بن عمر النجاشي بقوله:

أولـئـك أخـوالُ الـلـعـيـنِ وأسـرةُ الـ ... هـجـيـنِ ورهـطُ الـواهـنِ الـمـتـذلـلِ

ومـا سُـمّـيَ الـعـجـلان إلا لـقـولـهِ ... خذ القعبَ واحلبْ أيها العبدُ واعجلِ

فأصبحوا يتحامون هذا اللقب ويحاولون التخلص منه لأنه صار سُبّةً عليهم. وكانوا يوجّهون أهاجيهم إلى السادة والأشراف وذوي المكانة من الأفراد

والقبائل، لأنهم المشهورون والذين يكون لهجائهم صدى واسع بين الناس، كما أنهم المحسودون على مكانتهم وجاههم وسيادتهم.

أما صغار القوم وخاملو الذكر فلا يصيبهم من الهجاء إلا القليل، وإلى ذلك يشير الجاحظ قائلاً: «وإذا بلغ السيد في السؤدد والكمال حسده من الأشراف من يظن أنه لاحق به، وفخرت به عشيرته، فلا يزال سفيهٌ من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه، ومن طلب عيباً وجده، فإنْ لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه»[1].

وكان أشد الهجاء وأكثره إيلاماً ما كان صادقاً عفيفاً لاسبابَ فيهِ ولا فحشَ ولا إقذاع، وما كانت صياغته جميلة ومعانيه عميقة، فهذا النوع من الهجاء يبقىٰ عالقاً في أذهان الناس ويجد صدى في نفوسهم. أمّا إذا كان الهجاء سِباباً وشتيمة فالناس تنفرُ منه ولا تجد فيه فنّاً رفيعاً، لأنّ عامة الناس يستطيعون أن يفعلوا ذلك. ولأنه يهبط إلى مستوىٰ وضيع يأنف الشاعر الفحل من أن يهبط إليه، ولذلك خلا شعر زهير من الإسفاف في الهجاء والسبّ والشتم، هذا إذا علمنا أنّ غرض الهجاء قليل عنده، من ذلك قوله في هجاء آل حصن[2]:

وما أدري وسوفَ إخالُ أدري ... أقومٌ آلُ حصنٍ أم نساءُ

فإنْ تكن النساءُ مخبآتٍ ... فحُقَ لكلِ محصنةٍ هِداءُ[3]

فهذا من الهجاء العفيف وهو أسرع علوقاً بالقلب ولصوقاً بالنفس. وهو عكس الهجاء الفاحش الذي يتخذ السبّ والشتم وسيلة للنيل من المهجو، وذلك مثل قول أوس بن مغراء في هجاء بني عامر[4]:

---

(1) الحيوان ـ الجاحظ ـ تح عبد السلام هارون 2/ 93.

(2) ديوان زهير ص12 دار صادر ـ لبنان.

(3) وفي رواية: فإن قالوا النساء.

(4) نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ص90.

فلستُ بعافٍ عن شتيمةِ عامرٍ ولا حابسي عمّا أقولُ وعيدُها
ترى اللؤمَ ما عاشوا جديداً عليهم وأبقىٰ ثيابُ اللابسينَ جديدُها
لعمرك ما تبلىٰ سرابيلُ عامر من اللؤمُ ما دامت عليها جلودُها

وكان الحطيئة مشهوراً بكثرة هجائه، وربما جاءت له أبيات مثل هذه فيها إفحاش وإقذاع، وكان الناس يخشون معرّة لسانه ويتحامونه. وكانوا يتخيرون الأماكن العامة والمناسبات لإنشاد هجائهم لكي يأخذ طريقه إلى السيرورة والانتشار ولكي يُتناقل بين أكبر عدد من الناس. ولعلّ مواسم سوق عكاظ أكثر المواسم شهرة فكان الشعراء يفدون إليه لإنشاد ما نظموه من هجاء خصومهم. وفي ذلك يقول راشد بن شهاب اليشكري مهدداً قيس بن مسعود الشيباني[1]:

ولا تُوعِدنّي إنني إنْ تُلاقني معي مَشرفيٌّ في مَضاربهِ قضم
وذمّ يُغشّي المرءَ خِزياً ورَهطَهُ لدى السَّرحةِ العَشّاءِ في ظِلها الأَدَمْ

فهو يشير في الشطر الأخير إلى المكان الذي سينشد فيه هجاءه وهو الشجرة الكبيرة في سوق عكاظ والتي تُضرب تحتها الخيام.

ويلاحظ على قصائد الهجاء أنها في معظمها قصيرة، وقد تكون مقطّعات أو أبيات وذلك لسهولة حفظها وسرعة تناقلها.

7 ـ الوصف:

لقد برع شعراء ما قبل البعثة وتفننوا فيه وأبدعوا أيما إبداع، على الرغم من أنّ الوصف يعتمد على ذوق رفيع وخيال خصب وبصيرة ثاقبة، ذلك لما يستدعيه من دقة ملاحظة تدفع الشاعر إلى النظر إلى الأشياء بعين فاحصة ثم يُضفي عليها من خياله ما يجمّلها أو يضخّمها عاقداً بينها وبين الأشياء الأخرى ارتباطات ومقارنات بحيث يجعل للواحدة منها صفات الأخرى.

(1) المفضليات ص308.

ولم يدع الشاعر شيئاًيقع تحت حسه إلا تناوله بالوصف. وكان الشاعر الجاهلي فناناً بارعاً ووصّافاً ماهراً، فكان يرسم بالشعر لوحات فنية رائعة تتماوج فيها الظلال والألوان وتعجّ بالحركة والحياة، حتى يخيّل إليك أنك ترى هذه الأشياء حقيقة لا خيالاً.

إن أكثر ما أثار انتباه الشاعر في ذلك الوقت واستحوذ على اهتمامه هو البيئة الصحراوية وما يلوح فيها من حيوان وجماد ونبات وما يحدث فيها من ظواهر طبيعية كالبرق والرعد والمطر والسيول، وقد تفاعل الشاعر مع هذه الأشياء وأضفىٰ عليها من روحه وخياله سمات الشدة والقوة أو الحسن والجمال، ولهذا فإننا نجد في أشعار هذه الحقبة وصفاً للطبيعة بصنفيها: الحية والصامتة.

أما الطبيعة الحية فتشمل الإنسان والحيوان والطيور والزواحف والحشرات، وقد تناول الشعراء وصف هذه الأشياء وذكروها في أشعارهم تمثيلاً لحالة من حالاتهم، وقد أكثروا من وصف الحيوان الذي تكيّف مع صحرائهم وعاش فيها، ولعل أكثر تلك الحيوانات مناسبة لها هي الإبل، فهي سفينة الصحراء تتحمل قسوتها وتصبر على عطشها وتقطع رمالها بخفها العريض، وتقاوم جوعها بأكل أشواكها، كلّ هذه المواصفات جعلتها أنسب الحيوانات لحياة الصحراء. ولا عجب بعد ذلك أن نجد وصف الناقة يحتل ثمانية وعشرين بيتاً من معلقة طرفة بن العبد، فهي أثيرة لديه ورفيقته في حلّه وترحاله، وقد راح يدقق في وصف أعضائها وكأنه عاشق هام في حبيبته، قال طرفة في وصف ناقته[1]:

وإني لأُمضي الهمَّ عندَ احتضارهِ بعوجاءَ مرقالٍ تروحُ وتغتدي[2]

أمونٍ كألواحِ الأرانِ نسأْتُها على لاحبٍ كأنهُ ظهرُ برجدِ[3]

---

(1) شرح القصائد التسع المشهورات ـ ابن النحاس ـ تح أحمد خطاب 1/ 320 وما بعدها والجمهرة ص150.

(2) العوجاء: التي قد ضمرت، المرقال: السريعة في سيرها.

(3) الأران: تابوت الميت، نسأتها: ضربتها بالمنسأة وهي العصا، اللاحب: الطريف الذي أثر فيه، البرجد: كساء فيه خطوط.

جـمـالـيـةٌ وجـنـاءُ تـردى كـأنّـهـا سـفـنـجـةٌ تـبـري لأزعـرَ أربـدِ[1]

تـبـاري عِـتـاقـاً نـاجـيـاتٍ وأتـبـعـتْ وظـيـفـاً وظـيـفـاً فـوقَ مـور مـعـبّـدِ[2]

تـربـعـت الـقـفـيـن فـي الـشـولِ تـرتـعـي حـدائـقَ مـولـيّ الأسـرّةِ أغـيـدِ

فهو عندما تضيق نفسه ويشعر بالكآبة يروّح عن نفسه ويسلى هذه الهموم بامتطاء ناقة ضامرة سريعة في غدوّها ورواحها، وهي نشيطة وعظامها قوية شديدة مثل خشب التابوت وتجدّ في سيرها إذا ضربتها بالعصا وهي في طريق تكسوه الرمال الممتدة كخطوط الكساء، ثم استمر في وصف أعضائها وتناول الجمجمة والخد والمشفر والعينين والأعضاد. وعلى هذه الشاكلة سار بعض الشعراء في وصف إبلهم، إلا أنهم لم يبلغوا من السعة والتفصيل ما بلغه طرفة، ولم يطيلوا في وصفها والحديث عنها.

ولا تقل أهمية الخيل عند شعراء تلك الفترة عن أهمية الإبل، إن لم تتفوق عليها في بعض الحالات، لا سيما وقت الحروب والمعارك ووقت الخروج للصيد، فقد كانوا يرعونها ويحبونها ويكرمونها، لأنها عدتهم وعتادهم في أوقات السلم والحرب، وفي أوقات التنقل والرحيل، وفي أوقات النزهة والصيد. وقد اهتموا بنسلها وأنسابها، فاشتهرت الخيول العربية الأصيلة بنجابتها وما زالت حتى يومنا هذا، وكانوا يطلقون عليها الأسماء كما للبشر، ومنها: (جروة) اسم فرس عنترة، و(المزنوق) اسم فرس عامر بن الطفيل، وغيرها وقد استحوذت الخيل على اهتمام الشعراء فأشادوا بها ووصفوها وصفاً دقيقاً، وصف امرؤ القيس فرسه التي يخرج بها مبكراً إلى الصيد واللهو، ووصف عنترة فرسه التي يخرج بها إلى الحرب والقتال، فمن وصف امريء القيس قوله[3]:

---

(1) جمالية: ناقة تشبه الجمل في وثاقة الخلق، الوجناء: المكتنزة اللحم، تردى: ترجم الأرض رجماً، سفنجة: نعامة، أزعر: قليل الشعر، أربد: لونه لون الرماد.

(2) تباري: تنافس، عتاق: كرام الإبل الأصيلة، ناجيات: مسرعات، وظيف: عظم الساق، مور: طريق، معبد: مذلل.

(3) ديوان امرئ القيس، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ص19 وما بعدها ـ دار المعارف بمصر 1971. والجمهرة ص101.

وقد اغتدي والطيرُ في وكُناتِها　　بمنجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هيكلِ[1]
مِكَرٍ مِفَرٍ مُقبلٍ مُدبرٍ معاً　　كجُلمودِ صخرٍ حطّهُ السيلُ من عَلِ[2]
كُميتٍ يَزِلُّ اللّبدُ عن حالِ مَتْنهِ　　كما زلّتِ الصَّفواءُ بالمتنزلِ[3]
مِسَحٌّ إذا ما السابحاتُ على الونىٰ　　أثرنَ غُباراً بالكديدِ المُركّلِ[4]
على العقبِ جيّاش كأنّ اهتزامَهُ　　إذا جاشَ فيه حميُهُ غلي مرجلِ[5]
يطيرُ الغلامُ الخفُّ عن صهواتهِ　　ويلوي بأثوابِ العنيفِ المثقلِ[6]
دريرٍ كخُذروفِ الوليدِ أمرّهُ　　تقلّبُ كفيهِ بخيطٍ مُوَصَّلِ[7]
لهُ أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ　　وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تتفلِ[8]
كأنَّ على المتنينِ منه إذا انتحىٰ　　مداكَ عروسٍ أو صرايةَ حنظلِ[9]
كأنّ دماءَ الهادياتِ بنحرهِ　　عُصارةُ حِنّاءٍ بشيبٍ مُرجّلِ[10]

إن امرأ القيس في هذه الأبيات قد أضفىٰ كل صفات القوة والنجابة على فرسه، فهو عظيم الجسم قصير الشعر سريع العدو كأنه صخرة قذفها السيل من مكان مرتفع في أثناء كرّه وفرّه وإقباله وإدباره، ولونه يضرب إلى صفرة مشوبة بحمرة، وإنّ لبده ليسقط عنه لشدّة نعومته وملامسته، وهو نشط سريع الحركة

---

(1) الوكنات: أعشاش الطيور وأماكنها، منجرد: فرس قصير الشعر، الأوابد: الوحش، هيكل: ضخم.
(2) الجلمود: الصخرة الصلبة، حطّه: اسقطه.
(3) الكميت: الفرس الأحمر في سواد، يزلّ: يسقط، الصفواء: الصخرة الملساء، المتنزل: النازل عليها.
(4) مسح: سريع الجري، السابحات: الخيل المسرعة، الونىٰ: الضعف، الكديد: ما غلظ من الأرض.
(5) العقب: جري بعد جري، اهتزامه: صوت جوفه عند الجري، حمي: غلي، مرجل: قدر.
(6) يطير: يسقط، الخف: الخفيف، العنيف: الأخرق، المثقل: الذي لا يحسن الركوب.
(7) درير: سريع، أمرّه: أمضاه. وفي رواية: (تتابع كفّيه..).
(8) أيطلا: خاصرتا، إرخاء: عدو أو جري، السرحان: الذئب، التقريب: القفز، تتفل، ثعلب.
(9) مداك العروس: حجر تسحق عليه طيبها، صراية حنظل: حنظلة صفراء برّاقة.
(10) الهاديات: أوائل السرب، شيب مرجل: شيب مسرّح أو مرجّل.

يسبق كل الخيل يغلي غليان القدر، لا يهدأ ولا يفتر، لا تكاد حوافره تمسّ الأرض فلا يثير غباراً، لذلك لا يستطيع راكبه الثبات عليه، وهو يشبه في سرعته لعبة الخذروف وهي مما يلعب بها الصبيان حيث يلفونها بخيط على إصبعهم ثم يديرونها سريعاً، وهو فرس ضامر شبيه بالظبي في خاصرتيه النحيلتين، وساقاه مثل ساقي النعامة، وسرعته كسرعة الذئب، وقفزه مثل قفز الثعلب، إنه صلب الجسم مثل صخرة العروس التي يُدق عليها الطيب، لقد استطاع هذا الفرس أن يلحق بسرب من بقر الوحش فصاد الشاعر منه ما ابتغىٰ وراحت دماء الطرائد تسيل على صدر فرسه كأنه عصارة حنّاء خالطت شيباً.

رسم امرؤ القيس لفرسه في هذه الأبيات لوحة فنية رائعة بل لوحات متعددة تماوجت فيها الألوان الصفر والحمر، وعجت بالصخب والحركة والجري والشدّ والجذب والتسابق وانطلاق السهام وسقوط بقر الوحش صرعىٰ مدماة، إنه رسام ماهر جسّد لنا تلك الصفات وكأنها حيّة ناطقة.

أما عنترة فكان له تجاوب روحي وتمازج عاطفي بينه وبين فرسه الذي أعدّه للحرب والنزال، فهو فرس امتاز بكل علامات النجابة والأصالة، إنه فرس جريء صبور لا يكلُّ في ساحة الوغىٰ ولا يشكو شدّة الآلام التي تصيبه في ساحة المعركة، قال عنترة مخاطباً ابنةَ عمّه عبلة[1]:

هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكِ ... إنْ كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي
إذْ لا أزالُ على رحالةِ سابحٍ ... نهدٍ تعاورَهُ الكُماةُ مثلّمِ
ما زلتُ أرميهم بثغرةِ نحرهِ ... ولبانهِ حتى تسربلَ بالدمِ
فازورَّ من وقعِ القنا بلبانهِ ... وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمحمِ[2]
لو كانَ يدري ما المحاورةُ اشتكىٰ ... أو كانَ يدري ما جوابُ تكلمي

إنه يتحدث عن فرسه ويسبغ عليه صفات القوة والسرعة والتحمّل، وكان

---

(1) ديوان عنترة ـ ص207 وما بعدها والجمهرة 166 ـ 167.

(2) ازور: مال وانصرف، اللبان: الصدر، التحمم: صهيل فيه شبه الأنين.

يحس نحو فرسه بالشفقة والعطف ويتألم لما يصيبه، ويتخيّل محاورة تدور بينه وبين فرسه يشتكي فيها الفرس شدة ما أصابه في هذه المعركة، وفي هذا وصف روحي تعدّىٰ الوصف الظاهري أو الجسمي للفرس.

وإذا كان شعراء ما قبل البعثة قد أبدعوا في وصف الإبل والخيل، فإنّ لهم أوصافاً جميلة لحيوانات أخرى مثل الثور والبقرة الوحشية التي أجاد لبيد بن ربيعة في وصفها والحديث عنها، وكذلك وصفها زهير والأعشىٰ والنابغة وغيرهم كما وصفوا كل ما وقعت عليه أعينهم من حيوانات الصحراء، حيث ذكروا الذئب والظليم والظباء والكلاب (لا سيما كلاب الصيد) وتحدثوا عن الطيور مثل العقاب والغراب والباز والقطاة والنعامة، وتحدثوا عن الحشرات والزواحف مثل الذباب والأفعىٰ والضب وغيرها.

هذا بالنسبة للطبيعة الحية، أما الطبيعة الصامتة فقد احتل وصفها حيزاً كبيراً من شعرهم، إذ لم يتركوا ظاهرة من الظواهر الطبيعية إلا ذكروها، مثل المطر والرعد والبرق والغيم والسيول، ولم يدعوا شيئاً من بيئتهم إلاّ تحدثوا عنه مثل النجوم والوديان والكثبان الرملية والخيام والأطلال، كما تحدّثوا عن الليل وما يعانونه في أثنائه. وفي معلقة امرئ القيس نجد وصف بعض هذه الأشياء، حيث يقول[1]:

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخىٰ سدولَهُ ... عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي

فقلتُ لهُ لما تمطّى بصُلبهِ ... وأردفَ أعجازاً وناءَ بكلكلِ

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلي ... بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثلِ

فيا لكَ من الليلِ كأنَّ نجومَهُ ... بكلِّ مغارِ الفتلِ شُدّتْ بيذبُلِ[2]

كأنَّ الثّريا عُلّقتْ في مَصامِها ... بأمراسِ كتانٍ إلى صُمٍّ جندلِ[3]

---

(1) ديوان امرئ القيس ـ ص18 وجمهرة أشعار العرب 101.

(2) يذبل: اسم جبل، وقد اختلف في رواية هذا البيت وما بعده.

(3) المصام: المكان، الأمراس: الحبال، صم: صلب، جندل: حجارة كبيرة.

وهكذا نجد الشاعر في ذلك العصر يبرع في فن الوصف مستخدماً كل الألوان البلاغية في تجسيد صوره، حتى دخل الوصف في كل غرض من الأغراض الشعرية الأخرىٰ.

8 ـ الحكمة

إن سبب وضع الحكمة في آخر مبحث أغراض الشعر هو أنها لم تكن غرضاً مستقلاً، وأنها لم تفرد لها القصائد الطويلة، وإنما جاءت مبثوثة في ثنايا شعرهم وقد تُفرد لها مقطوعات.

والحكمة عند شعراء هذا العصر ليست مبنية على أسس فلسفية، وإنما هي ثمرة تجارب طويلة عاشها الناس فنظر الشعراء فيها نظرة فاحصة مدققة فاستخلصوا من هذه التجارب حكمتهم. ويبدو أن ظاهرة الموت والفناء استرعت انتباه الشعراء واهتمامهم، فنظروا إلى الأمم السابقة وما حلّ بها من كوارث، وإلى الملوك والعظماء كيف ودّعوا هذه الحياة ولم يأخذوا منها شيئاً على الرغم من كثرة ما كانوا يملكون من المال والجاه، واستخلصوا من ذلك درساً قدّموه وصية ونصيحة لمن كان في زمانهم ولمن سيأتي بعدهم لئلا يصيبه ما أصاب هؤلاء الماضين من الكبرياء والغرور الذي أفضى بهم إلى تلك النهاية.

وقد وُجدت الحكمة عند قدامى الشعراء مثل عبيد بن الأبرص وعبدة بن الطبيب وعدي بن رعلاء وغيرهم، وكانوا يسوقون حكمهم في ثنايا أغراضهم الشعرية الأخرىٰ حيث يدلون بتجاربهم في تضاعيف القصيدة، مقدمين النصائح والحكم التهذيبية.

وحكمة الشاعر تأمّل في مصير الإنسان وفي الغاية التي ينشدها والنهاية التي ينتظرها، وهي ـ في الغالب ـ إحساس ذاتي وانطباع مستنبط عن طريق التجربة الشخصية وما شاهده الشاعر أو سمع به، ويستخلص الحكمة من هؤلاء الشعراء من تميّزوا بقسط من النضج العقلي والتفكير المنطقي، مستفيدين من أخبار وتجارب الحكماء السابقين، مضيفين إليها معاناتهم في هذه الحياة وما مرّوا به من أحداث ألهمتهم العبرة والدرس.

فحكمتهم إذن وليدة حوادث الدهر ومصائبه لا وليدة التفكير الفلسفي المنظّم والعلم الدقيق، فجاءت متطابقة مع بيئتهم البدوية وما تواضعت عليه القبيلة من تقاليد وآداب خلقية تهدف إلى منفعة العربي، حيث تزيّن له الفضائل وتدعوه إلى التمسك بها، وتقبّح له الرذائل وتدعوه إلى الابتعاد عنها.

ولعل أكثر ما تمسكوا به من الفضائل ودعوا إليه الوفاء بالوعد وإباء الذلّ والصبر عند الشدائد وقد تكون هذه أموراً إنسانية تصلح لكل زمان ومكان، وهناك فضائل تمجدّها القبيلة وترى فيها عزّها وسؤددها وذلك مثل الأخذ بالثأر وتعظيم القوة (الشجاعة) وإكرام الضيف (الكرم) وتحقير الضعيف (الجبان).

وقد أكثروا من الحديث عن الموت في هذه الحكم، لأنه ظاهرة لم يستطيعوا تفسيرها ولم يجدوا خلاصاً منها، فشكوا الزمان وتظلّموا من الدهر الذي يبلي الحياة ويفرّق بين الأهل والأقارب والأحباب، وممن أكثر من ذكر الموت والفناء الشاعر لبيد حيث يقول في رثاء أخيه أربد[1]:

بَلينا وما تبلى النجومُ الطوالعُ ... وتبقىٰ الجبالُ بعدنا والمصانعُ
وقد كنتُ في أكنافِ جارِ مَضنةٍ ... ففارقني جارٌ بأربد نافعُ
فلا جَزِعٌ إن فرّقَ الدهرُ بيننا ... وكلُّ فتًى يوماً بهِ الدهرُ فاجعُ
فلا أنا يأتيني طريفٌ بفرحةٍ ... ولا أنا مما أحدثَ الدهرُ جازعُ
وما الناسُ إلا كالديارِ وأهلِها ... بها يومَ حلّوها وغدواً بلاقعُ
وما المرءُ إلا كالشِهابِ وضوئهِ ... يحورُ رماداً بعدُ إذْ هو ساطعُ
وما البرُّ إلا مضمراتٌ من التقىٰ ... وما المالُ إلا مُعمراتٌ ودائعُ
وما المالُ والأهلونَ إلا وديعةٌ ... ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ

ومن غيّبه الموت فليس له عودة، يقول عبيد بن الأبرص:

وكلُّ ذي غيبةٍ يئوبُ ... وغائبُ الموتِ لا يئوبُ

(1) ديوان لبيد ـ ص88 ـ 89 دار صادر ـ لبنان.

فالموت يغيّب جميع الناس ولا يترك أحداً ولا يحابي أُناساً دون آخرين، فلا ينجو منه الفقير ولا يستعصي عليه الغنيُّ على الرغم مما يملك من أموال طائلة، كما أنه لا يفرّق بين كريم وبخيل فهو آتيهم جميعاً، يقول طرفة[1]:

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدّدِ

ولهذا فعلىٰ الإنسان أن ينظر إلى المقابر ويرىٰ من غُيّبوا فيها ليأخذ العبرة والعظة من مصيرهم، فالدهر متربّص بالجميع، وكل يوم له فوج يعصف بهم كما عصف بمن قبلهم، يقول عدي بن زيد العبادي[2]:

من رآنا فليحدّثْ نفسَهُ أنهُ مُوفٍ على قَرْنِ زوالْ

وخطوبُ الدهر لا يبقى لها ولما تأتي به صمُّ الجبالْ

رُبَّ ركبٍ قد أناخوا عندَنا يشربونَ الخمرَ بالماءِ الزلالْ

والأباريقُ عليهم فدمٌ وعِتاقُ الخيلِ تردى في الجلالْ

عمّروا دهراً بعيشٍ حَسَنٍ آمني دهرِهمُ غير عِجالْ

ثم أضحوا أخنعَ الدهرُ بهم وكذاك الدهرُ يودي بالجبالْ

وكذاكَ الدهرُ يرمي بالفتى في طِلاب العيشِ حالاً بعدَ حالْ

ونظر زهير بن أبي سُلمى إلى الحياة فوجدها فانية وأن الموت نصيب كل إنسان فإن أخطأه دهراً فسيلحق به بعد أن يكون قد كبر وهرم، والغيب عالم مجهول لا يعرف الإنسان عنه شيئاً، لذلك عليه أن يستعدّ لتحمّل كل نوازله وأحداثه، ولا تغره الحياة وما فيها من متع وملذات، بل عليه أن يسخّر ما لديه من أموال وجاه وقوة لخدمة أبناء مجتمعه ليكسب ودّهم ورضاهم وليكون حديثهم عنه بعد موته حديثاً كريماً وذكراه طيبة، يقول زهير[3]:

---

(1) الجمهرة ص156.

(2) ديوان عدي ص82 ـ 83 ط بغداد سنة 1966.

(3) ديوان زهير ص86 ـ 87 والجمهرة ص110 ـ 111.

رأيت المنايا خبطَ عشواءَ من تُصِبْ تُمِتْهُ ومَنْ تُخطِىءْ يعمّر فيهرمِ
وأعلمُ ما في اليومِ والأمسِ قبلَهُ ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عمِ
ومَنْ لا يصانعْ في أمورٍ كثيرةٍ يضرّسْ بأنيابٍ ويُوطأ بمنسِمِ
ومَنْ يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلهِ على قومهِ يُستغنَ عنهُ ويُذممِ
ومَنْ يجعلِ المعروفَ من دونِ عرضهِ يَفِرْهُ ومَنْ لا يتقِ الشتمَ يُشتمِ
ومَنْ لا يَذُدْ عن حوضهِ بسلاحهِ يُهدّمْ ومن لا يظلمِ الناسَ يُظلمِ
ومَنْ هابَ أسبابَ المنايا ينلْنَهُ ولو نالَ أسبابَ السماءِ بسلَّمِ

فزهير ينظر إلى الحياة نظرة واقعية فيها كثير من التبصّر، فقد عاصر أحداثاً جساماً واصطلىٰ بلظىٰ حروب طاحنة، ورأى الناس يسقطون كالفراش في نار هذه الحروب، فاستخلص من هذ الأحداث العبرة والعظة، وقدّم لنا بأسلوب وعظي حِكَمهُ ونصائحه التي عبّرت عن أفكاره وسلوكه في الحياة.

من خلال ما قدّمنا من نماذج لشعر الحكمة يمكننا أن نلاحظ أن حكمة الشعراء في ذلك العصر قائمة على تجاربهم الشخصية ونظرتهم الخاصة إلى الحياة وما فيها من ظواهر وأحداث سيطرت على مشاعرهم واستحوذت على فكرهم، فلم يكونوا متكلفين في تصويرها أو في أسلوب سردهم لها، بل كانت انعكاساً طبيعياً لمعاناتهم التي اتشحت بالعاطفة الحزينة وما فيها من ألم ولوعة نتيجة صراعهم مع الموت الذي غلبهم وفتك بفلذات أكبادهم من الأهل والأصحاب، وغالباً ما كان للسنِّ والخبرة والنظر والتأمل دور كبير في استخلاص هذه الحكم.

الطبع والصنعة

تحدّث الأدباء والنّقاد في العصر العباسي عن الشعراء وفنهم الشعري وطريقة نظمهم، وذكروا أن هناك من ينظم الشعر على الطبع والسجية، وهناك من ينظم ثم يعيد النظر فيما نظم ويصلح ما يراه بحاجة إلى إصلاح، فيحذف ويبدّل ويقدّم ويؤخر. فأطلقوا على النوع الأول شعراء الطبع، وعلى الثاني شعراء الصنعة. ولو نظرنا إلى المعنىٰ الذي يدل عليه كل مصطلح من هذين المصطلحين لوجدنا الاني:

1 ـ الطبع: هو الخليقة والسجية التي جُبل عليها الإنسان[1]. وفي الشعر: هو الملكة والموهبة القادرة في نفس الأديب التي تلهمه المعاني استجابة لانفعالاته، وهي هبة من الله يمنحها من يشاء من عباده.

2 ـ الصنعة: هي حرفة الصانع وعمله ومهارته في هذا العمل، وفي الشعر: هي عملية إنشاء وإبداع الشعر، وقدرة الشاعر وتمكّنُه من التصرف في ضروب الكلام وفنونه، والتصرف في أغراض الشعر المختلفة، والنظر في فصاحة الكلام وجزالته.

(1) الصحاح ـ الجوهري ـ مادة (طبع) 3/ 1252.

وقد تحدّث ابن قتيبة[1] عن المطبوع من الشعراء فذكر أنه المقتدر على القوافي الذي يريك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة.

كما شُبّه الشاعر المطبوع بالبحر حيث يقذف مرة صدفة، ويقذف مرة خرزة، أي أن شعره متفاوت بين القوة والضعف وذلك حسب الحالة الشعورية التي تنتابه في لحظة نظمه للشعر، ويكون باعثه للنظم هو الطبع والفطرة حيث يكون الشعر نتاج تأثر النفس ببواعث الشعور.

فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر، والتي توحي إليه وحي الفطرة والطبيعة، فيستجيب لعواطفه ومشاعره دون تعب أو تكلف في الصياغة، ودون جري وراء التعقيد والصناعة اللفظية.

ومعظم الشعر العربي القديم كان استجابة لعواطف الشاعر وأحاسيسه وشعوره بما يدور حوله وتأثره به. وكان الشاعر ينظمه ـ غالباً ـ على البديهة والسليقة، ويأتي شعره عفو الخاطر.

أما الصنعة فيقول عنها ابن قتيبة[2]: إنها تقويم الشعر بالثقاف ونتقيحه بطول التفتيش وإعادة النظر فيه بعد النظر، كما كان يفعل زهير بن أبي سُلمى والحطيئة، وقد سمّىٰ الأصمعي أمثال هؤلاء (عبيد الشعر)، وهو وصف أطلقه على من كان يجوّد في جميع شعره، ويقف عند كل بيت قاله ويعيد النظر فيه حتى تخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة.

ويبدو أن الصنعة تأتي نتيجة إحساس الشاعر بآثار الجمال الفني في الصياغة الشعرية، بما فيها من تزويق لفظي وزخرفة في الأسلوب وتجويد في الصورة، حتى يكون هدف الشاعر إتقان قصيدته حتى تخرج كاملة في نظره. لذلك كان زهير يُسمي كبرى قصائده (الحوليات) أي التي تبقىٰ عنده حولاً كاملاً

(1) الشعر والشعراء 1/ 34.

(2) الشعر والشعراء 1/ 22.

يصلحها ويثقفها ويعيد النظر فيها ثم يعرضها على أخصائه، فإذا اطمأنّ إليها أذاعها ونشرها.

وكان الحطيئة مثل أستاذه زهير يرى أن خير الشعر الحولي والمنقح المحكم[1]. إلا أن بعض قدماء النقاد عابوا الصنعة والتصنيع، ورأوا مذهبهم يخالف مذهب القدماء من الشعراء، وهم يقصدون بذلك شعراء العصر العباسي الذين أكثر بعضهم من الصنعة وبرز لون جديد من هذه الصنعة وهو الذي سمّاه النقاد (البديع) والذي أكثر منه الشاعر بشار بن برد وابن هرمة والعتابي، ويُعدّ الشاعر مسلم بن الوليد أول من تكلّف البديع، ثم أكثر منه أبو تمام.

خصائص شعر ما قبل البعثة

أولاً ـ الخصائص اللفظية:

1 ـ جزالة الألفاظ:

ويقصد بالجزالة: الفخامة، أي أن تقع الكلمة موقعها السليم في الاستعمال، فلا تكون من الألفاظ الكثيرة الاستعمال والتي تهبط إلى مستوى الكلمات العامّية، ولا تكون غريبة كزّة نابية يمجها الذوق وتثقل في السمع، مثل كلمة (مستشزرات) التي وردت في بيت امرىء القيس:

غدائره مستشزرات إلى العُلىٰ تظلّ العقاص في مثنى ومرسل

حيث يتحدث الشاعر في هذا البيت عن شَعر حبيبته فذكر أن غدائره أي جدائله (مستشزرات) أي مرتفعات، فجاء بهذه اللفظة الثقيلة التي يجد اللسان صعوبة في نطقها، كما تقع في أذن السامع كالصخور الصمّاء، ومثل هذه اللفظة كانت تسمىٰ وحشية أو حوشية، أي أنها غير مأنوسة وغير مستساغة في الاستعمال. ومثلها كلمة (بُعاق) أي المطر، إلاّ أن مثل هذه الألفاظ قليلة

---

(1) العمدة ـ ابن رشيق 1/112.

الاستعمال في شعر ذلك العصر ولا تشكّل ظاهرة تلفت النظر، وقديماً عابوا الشعراء الذين يستعملون مثل هذه الألفاظ.

وقد لوحظ على شعرهم ـ غالباً ـ أنه يمتاز بقوة ألفاظه وجزالتها ومثانتها وتعبيرها عن المعاني بدقة وجلاء. وربما نتصور نحن ـ اليوم ـ أن مثل هذه الألفاظ (غريبة) أي غير مألوفة في كلامنا، بينما كانت في عصرهم فصيحة جزلة مأنوسة؛ ذلك لأن الشاعر القديم كان يعيش في الخيام لا سيما إذا كان من سكان البادية، ويتعامل مع الخيل والإبل والحيوانات الأخرى، وينتقل بين الأماكن التي يعرفها، فحينما يتحدث عن هذه الأمور يستخدم الألفاظ الدالة عليها والشائعة بينهم، وهي بالنسبة لنا غريبة لأننا لا نعرف تلك الأماكن. من ذلك ما جاء من كلمات في البيتين الأوليين من معلقة امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها   لما نسجته من جنوب وشمأل

فقد ذكر أسماء خمسة مواضع لا نعرفها هي (سقط اللوى، الدخول، حومل، توضح، المقراة) ولا نفهم معناها إلا بعد الرجوع إلى الشروح فهي غريبة عنا وغير مألوفة عندنا، أما بالنسبة للشاعر فهي أماكنه التي يتردد عليها ويتنقل بينها، فهي مألوفة بالنسبة له.

وهكذا يُقال عن بقية الألفاظ التي نشعر أنها صعبة أو غريبة.

2 ـ متانة التراكيب:

ونعني بذلك أن شعرهم كان كامل الصياغة صحيح التركيب، حيث يجري على قواعد اللغة العربية، والعبارة تستوفي أداء مدلولها، فلا قصور فيها ولا عجز، ولا ضعف فيها من تقديم لفظة في غير محلها، أو تأخير لفظة إلى غير مكانها الذي تقتضيه أساليب العرب، أو زيادة حشو لا فائدة فيه، أو حذف يخلّ بالمعنى وقد اهتموا بهذه التراكيب اهتماماً كبيراً، وصرفوا إليها جهدهم، حتى كان منهم من يخرج قصيدته في عام كامل، يردد نظره في صِيَغها وعباراتها حتى

تصبح تامة مستوية في بنائها، حتى لُقّب بعضها (بالحوليات)، وقد أبدعوا فيها، وأحكموا صياغتها، وصقلوها، وجوّدوا ألفاظها وتراكيبها. ولشدة عنايتهم بشعرهم سُمّوا (عبيد الشعر)؛ لأنهم يتكلفون إصلاحه بعد نظمه، ويشغلون به حواسهم وخواطرهم. وقد اشتهر من بين هؤلاء: زهير والنابغة والحطيئة وطفيل الغنوي.

3 ــ استعمال الألفاظ في معانيها الحقيقة:

ويصدق ذلك في أغلب شعرهم، حيث كان الشاعر صادق العاطفة، لا يغالي، ولا يسرف في المبالغة. وقد استعملوا المحسنات اللفظية وأكثروا من التشبيه، كما استعملوا الاستعارات والكنايات بدرجة معقولة لتساعدهم في الإفصاح عن المعاني، ولتكسو الأفكار قوة وبروزاً دون اللجوء إلى استعمال الألفاظ العامية أو الوقوع في اللحن والعجمة. ولم يغفلوا المحسنات البديعية في شعرهم مثل الطباق والجناس، ولكن استعمالهم لهذه المحسنات كان طبيعياً وغير مقصود لذاته ودون تكلّف أو استكراه، ولعل شاعراً لم يفطن إليها أو يكثر منها.

وكان الهدف من استعمال هذه المحسنات هو التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم بصدق ووضوح.

ثانياً ـ الخصائص الموضوعية:

1 ــ تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة:

إذ لم يكن الشاعر يقصر قصيدته ــ لا سيما إذا كانت طويلة ــ على غرض واحد، وإنما يتناول في القصيدة الواحدة أكثر من موضوع، ويجمع فيها بين أغراض عدة، وقد جرت العادة أن تُفتتح القصيدة بذكر الأطلال وهي غالباً ما تكون أطلال الحبيبة التي رحلت وتركت الديار خالية، ثم ينتقل الشاعر إلى الغزل فيصف الحبيبة ويتحدث عنها وعمّا تركه بُعدها في نفسه من ألم وصبابة،

واصفاً مشاعره نحو حبيبته. ثم ينتقل إلى وصف رحلته في الصحراء فيصف ناقته مُشيداً بقوتها وصبرها على تحمّل أعباء الرحلة، وقد يصف حصانه إذا كان حديثه يدور حول الحرب أو الصيد، وبعد ذلك يصل إلى غرضه الأساسي سواء أكان مديحاً أم فخراً أم هجاء أم غير ذلك.

وهذه الظاهرة تصدق على المعلقات وعلى معظم القصائد الطويلة، ويسمىٰ فيها الانتقال من موضوع إلى آخر بالاستطراد. أمّا إذا كانت القصائد قصيرة فهي ـ في الغالب ـ تعالج موضوعاً واحداً، أو تقتصر على غرض واحد، كالوصف والحماسة وغير ذلك.

2 ـ الوقوف على الأطلال:

وهي عادة درج عليها الشعراء في ذلك العصر، حيث أن بيئتهم الصحراوية وحياتهم القائمة على الرحلة والتنقّل كان لها الأثر الكبير في بروز هذه الظاهرة، إذ راح الشعراء يفتتحون قصائدهم بذكر الأطلال ووصف الديار التي رحل عنها أهلها وتركوها موحشة مقفرة، تثير في نفس الشاعر ذكريات الماضي الجميل، وتبعث في نفسه لوعة البعد والفراق، وبعد أن يعود الشاعر بعد سنين طويلة إلى تلك الديار يجدها خالية من أهلها قد عفا عليها الزمن وأصبحت مرتعاً للوحوش والظباء ولم يبق منها إلا رسوم بالية بعد أن تعرضت لتقلبات الطقس وعوامل التعرية، حتى أصبح منظرها يذكر الشاعر بتداعيات الماضي ويبعث في نفسه الأسىٰ واللوعة، وقد أصبح افتتاح القصائد بالوقوف على الأطلال سُنّة متبعة عند أكثر الشعراء في عصر ما قبل الإسلام وفي العصور اللاحقة، وربما استعملت في وقتنا الحاضر.

3 ـ استقلالية البيت بمعناه:

أي أن كل بيت يمكن أن يكون مستقلاً بمعناه عن باقي أبيات القصيدة، حيث أنه يمثل وحدة قائمة بذاتها مستقلة بفكرتها الجزئية، وقد لا يحتاج البيت في فهم معناه إلى ما قبله أو بعده من أبيات القصيدة، كما أننا لو قدمنا بيتاً على

آخر لما اختل معنى الأبيات، ولبقيت القصيدة محافظة على معناها العام دون أن يحدث خلل في التسلسل المنطقي للمعنى، ولهذا كان النقاد يفاضلون في المعنى بين بيت وآخر لا بين القصيدة كلها، فقالوا ـ مثلاً ـ أن أغزل بيت هو بيت جرير:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

كما قالوا: أن أفخر بيت كذا، وأمدح بيت كذا، وأهجى بيت كذا... إلخ ونتيجة لذلك وجدنا أن تسلسل أبيات القصيدة يختلف بين راوية وآخر، كما نجدها مختلفة في العديد من الكتب والمصادر.

4 ـ الاشتراك في المعاني:

تداول شعراء تلك الفترة معاني متشابهة تدور حول موضوع معين وذلك نظراً لتشابه البيئة التي عاش فيها معظم الشعراء في ذلك العصر، وبما أن النزعة الحسية هي الغالبة والمسيطرة عليهم فقد جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم، بل ظلوا يدورون حول معان تكاد تكون واحدة، فما يقوله امرؤ القيس في بكاء الديار يقوله معظم الشعراء، وما يقوله طرفة في وصف الناقة يقوله فيها غيره، وما يقوله عمرو بن كلثوم في الفخر يقوله معظم شعراء الحماسة والفخر، فهم يتداولون معاني واحدة، ويتناولون أخيلة وتشبيهات واحدة، وكأن نزعة التقليد والمحاكاة كانت مسيطرة عليهم، إلا أنهم مع ذلك استطاعوا أن يبدعوا في الجزئيات والتفاصيل الدقيقة، فإذا تحدثوا عن معنى واحد حاول كل شاعر أن يعطيه من شخصيته شيئاً، فإذا اشتركوا في تشبيه المرأة بالظبية راح كل واحد منهم يصف عضواً أو حركة منها تختلف عما قاله الآخر. وإذا شبهوا الرجال بالكواكب والنجوم في السمو والرفعة أخذ كل شاعر يعطي صورة تختلف عن الصورة التي رسمها شاعر آخر، من ذلك قول عامر المحاربي[1]:

(1) المفضليات 321.

وكنا نجوماً كلّما انقضّ كوكبُ بدا زاهرٌ منهنّ ليس بأقتما

بدا زاهر منهن تأوي نجومه إليه إذا مستأسد الشر أظلما

ويقول طفيل الغنوي[1]:

نجوم ظلام كلما غاب كوكب بدا ساطعاً في حندس الليل كوكب

ويقول لقيطُ بن زرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادة بديعة[2]:

وإني من القوم الذين عرفتمُ إذا مات منهم سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غار كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجىٰ الليل حتى نظّم الجزعَ ثاقبه

ثم أبدع النابغة في وصف النعمان بالشمس وبقية الملوك بالكواكب حين قال:

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب

وهكذا نجد هؤلاء الشعراء يأتون بهذا التشبيه ولكن كل واحد منهم يأخذه من جانب أو يضيف إليه ما يوحي بأنه صورة جديدة، فالمعنىٰ واحد ولكن إضفاء اللمسات الجمالية عليه جعله مختلفاً عن غيره، وأبرزه في ثوب أكثر شفافية وجمالاً.

5 ـ التعلق بالمحسوسات:

تناول الشاعر القديم الموضوعات الحسية الواضحة التي تزخر بها بيئته، فكان ينقلها بصورتها الحقيقية، أو يجعلها مجسّمة في أشياء حسية، أو في صورة أشخاص، حتى إذا أراد أن يشبه الأشياء شبهها بأمور محسوسة، وإذا أراد أن يتحدث عن المعاني الذهنية قرنها بأشخاص معينين، فالكرم يُقرن بحاتم الطائي، والشجاعة بعنترة، والوفاء بالسموأل، والبخل بماذر، وإذا وصفوا الرجل بالكرم

(1) الحيوان 3/ 94.

(2) الحيوان 3/ 93.

والجود والعطاء شبهوه بالغيث والبحر، وإذا وصفوه بالشجاعة والإقدام شبهوه بالأسد والسيف، وإذا تحدّثوا عن جمال المرأة شبهوه بأشياء مادية محسوسة مثل الدر والبدر والغزال، وهكذا بقية الموضعات المعنوية الذهنية.

وقد دفعهم تعلّقهم بالأمور المحسوسة إلى التمحيص والتدقيق في الأشياء التي يريدون الحديث عنها ليبرزوا قضاياها الصغيرة، ويصفوا حركتها ولونها، أي أنهم لا يصفون هذه الأمور المحسوسة في حالة سكونها، وإنما يصفونها في حالة الحركة والحيوية، فحينما يصفون الحيوانات يصفونها وهي تروح وتجيء، أو تجري مسرعة، أو تزوّر من وقع القنا وتشكو وتحمحم.

ثالثاً ـ الخصائص الفنية:

1 ـ متانة الأسلوب:

امتازت أساليبهم بدرجة محكمة من حيث الصياغة وحسن السبك، وبالقوة والفصاحة، وجودة العبارة وبلاغتها، وتأديتها المعنىٰ دون خلل أو قصور، مع بعدها عن التفكك والركاكة واللحن.

2 ـ التصوير الفني:

استعان الشعراء بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية في رسم صور فنية جميلة للاستحواذ على إعجاب المتلقّي، فأكثروا من التشبيهات التي تزيد الصورة وضوحاً وجلاء، كما استعانوا بالكناية والاستعارة لإضفاء الطابع الجمالي على تلك الصور، وزوّقوها ولونوها بأنواع المحسنات اللفظية من جناس وطباق، إلا أن ذلك كان قليلاً، وحسبما يستدعيه الموقف، منساباً مع الطبيعة ودون تكلف أو مبالغة، فإذا وصفوا شيئاً قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسي. وأمثلة ذلك كثيرة مبثوثة في شعرهم. وقد يأتون بصور في غاية الطرافة والإبداع، كما في قول سويد بن أبي كاهل يصف أسنان صاحبته[1]:

---

(1) المفضليات ـ ص191.

حـرّة تـجـلـو شـتـيـتـاً واضـحـاً كـشـعـاع الـشـمـس فـي الـغـيـم سـطـع

حيث شبّه لمعان أسنانها وبريقها بشعاع الشمس يبزغ من خلال الغيم.

وكما في قول امرئ القيس مخاطباً الليل:

فـقـلـتُ لـه لـمّ تـمـطّـىٰ بـصـلـبـه وأردف أعـجـازاً ونـاءَ بـكـلـكـل

حيث صوّر طول الليل وتباطؤه ببعير جاثم لا يتحرك، فاستعار لليل صُلباً وأعجازاً وكلكلاً، وهي صورة في غاية اللطافة.

ومن النواحي الجمالية التي استعانوا بها في رسم صورهم المحسنات اللفظية مثل الجناس والطباق الذي وقع عندهم اتفاقاً ودون قصد ولعل شاعراً لم يفطن إليه حينما استخدمه، من ذلك قول امرئ القيس في وصف فرسه:

مِـكّـر مِـفـرْ مـقـبـل مـدبـر مـعـاً كجلمود صخر حطّه السيلُ من علِ

كُـميتٍ يـزلّ الـلبـد حن حـال متـنـه كـمـا زلّـت الـصـفـواء بـالـمـتـنـزلِ

فقد طابق في البيت الأول بين لفظتي: مكر ومفر، وبين مقبل ومدبر. وجانس في البيت الثاني بين لفظت يزلّ وزلّت.

إنّ غرض الشاعر في استخدام هذه المحسنات المعنوية واللفظية هو الإبداع الفني في إخراج الصورة بشكل يُعجب المتلقي، ويبعث في نفسه الإعجاب والرضا والسرور.

3 ـ الحس الموسيقي:

وهي ميزة جعلت الشعر العربي يتفوق على أشعار الأمم الأخرى، حيث كان الشاعر العربي القديم مبدعاً في هذا الجانب، إذ استوى له نغم القصيدة استواء كاملاً سواء من حيث اتحاد النغم، أو اتحاد القوافي وحركاتها، وابتكروا أوزاناً عديدة مختلفة تمثّلت فيها العذوبة والحلاوة الموسيقية، حتى أصبحت سمة بارزة لشعر ذلك العصر والعصور اللاحقة.

وقد امتازت موسيقى شعرهم بالانسجام التام بين الألفاظ واتساق النغمة

في القصيدة الواحدة، مما أضفىٰ عليها رونقاً وبهاءً. وتظهر موسيقى الشعر في جانبين:

أ ـ **الموسيقى الخارجية**: وتتمثل في الوزن والقافية، فجميع القصائد متحدة في البحر مهما طالت أبياتها. وهو عبارة عن تكرار تفاعيل معينة في كل بحر. وتكرار حرف القافية في نهاية كل بيت حيث يُختتم البيت بنغمة واحدة متشابهة.

ب ـ **الموسيقى الداخلية**: وهي تعني الانسجام الصوتي الداخلي الذي يحدث من التوافق بين الكلمات ودلالاتها حيناً، أو بين الكلمات في انسجامها مع بعضها حيناً آخر، ومدار ذلك على التكرار والتنويع والجناس والتقسيم.

أهم مصادر شعر ما قبل البعثة

الاختيارات والدواوين الشعرية

1 ـ المعلقات:

هي قصائد طويلة جميلة اشتهرت بين الناس وذاع صيتها، لما تميّزت به من جودة السبك وبلاغة العبارة وحسن التصوير ودقة التعبير، ولهذا تعلّق بها الناس وحفظوها وتناقلوها وتداولوها، ووجدوا فيها متعة نفسية، وذوقاً رفيعاً، وحسّاً مرهفاً أثار إعجابهم وعبّر عن خلجات نفوسهم وما يعتمل في داخلهم من مشاعر وأحاسيس.

وقد مثّلت هذه القصائد أنموذجاً عالياً ومستوىً رفيعاً في الجودة والإتقان، حتى نظروا إليها على أنها الصورة الكاملة الناضجة التي انتهت إليها تجارب العرب في عصر ما قبل البعثة في التعبير الأدبي الرفيع. فاحتلت هذه المكانة في نفوسهم ونفوس من جاء بعدهم. وصار لأصحابها شهرة واسعة لم يظفر بها غيرهم من الشعراء؛ ولهذا احتلّ بعض أصحابها المرتبة الأولى في طبقات الشعراء. وقد أصبحت هذه القصائد المثل والقدوة التي يحاكيها الشعراء حين ينظمون، محاولين السير على منوالها، متأثرين بطريقة نظمها، وجمال صورها، ومتانة أسلوبها.

وعلى الرغم من طول الفترة الزمنية التي نُظمت فيها إلا أنَّ الناس ـ لا سيما الشعراء ـ ما زالوا يُعجبون بها أشدّ الإعجاب، ويطمحون في الوصول إلى مستوى قريب من مستواها، سائرين على خطىٰ أصحابها في الإبداع الفنّي، والتعبير البليغ، والصياغة المتقنة.

ـ أسماؤها:

أطلق على هذه القصائد أسماء عدة، كل واحد منها يتناول صفة من صفاتها، فبعض هذه الأسماء يتعلق بعددها، وبعضها يتعلق بمكانتها وأهميتها. وأهمّ هذه الأسماء:

أ ـ المعلقات، ب ـ السبع الطوال، ج ـ القصائد التسع المشهورات، د ـ القصائد العشر، هـ ـ المذهّبات، و ـ المسمطات (السموط).

ولكن اسم المعلقات غلب على بقية الأسماء. أمّا سبب إطلاق هذا الاسم عليها فهناك أكثر من رأي، وأشهر هذه الآراء:

أولاً: إنّ العرب قديماً اختاروا هذه القصائد وكتبوها بالذهب على الحرير، وقيل: كتبوها بماء الذهب على القباطي[1] وعلّقوها على أركان الكعبة، وقيل: في أستارها.

وقال بهذا الرأي بعض الأدباء والباحثين، ومنهم: ابن الكلبي وابن عبد ربه وابن رشيق القيرواني وابن خلدون والبغدادي وغيرهم.

ثانياً: إنها عَلِقتْ بأذهان الناس بعد أن حفظوها وتناقلوها فيما بينهم لأهميتها وجودتها وحبّ العرب لها واعتزازهم بها.

ثالثاً: إنّ لفظ التعليق جاء من تسمية المعلقات بالسموط، والسمط: هو العقد النفيس الذي يُحلّى به الجيد ويُعلّق في العنق. ولكون هذه القصائد نفيسة

(1) القباطي: ثياب تميل إلى الرقة والبياض، وربما اتخذت من الكتان.

كالعِلق الثمين الذي يكون ـ غالباً ـ من الماس أو الذهب أو اللؤلؤ أو من الأحجار الكريمة الأخرى فقد شُبّهت هذه القصائد بهذه المعادن الثمينة التي تُعلّق في الصدور وسُمّيت المعلقات.

وقد نفىٰ بعض الأدباء والباحثين فكرة التعليق على الكعبة وعدّوا ذلك من باب الأساطير، وأنه لم يرد عن العرب ما يثبت صحة فكرة تعليقها. ومن هؤلاء أبو جعفر النحاس وابن الأنباري وياقوت الحموي ومصطفى صادق الرافعي وأحمد الحوفي وشوقي ضيف.

وكان كل فريق منهم قد ساق حججه وأدلته، وكلّها مقنعة، إلا أنها نظرية ولا تستند إلى ما يؤيدها من الشواهد والأدلة الثابتة. وعليه فلا يمكن الميل إلى رأي منها، أو القطع بصحة هذا الرأي أو ذاك، وتبقى كل الاحتمالات واردة.

ـ عددها:

اختلف في عدد هذه القصائد المختارة والتي سُمّيت بالمعلقات، فقيل: إنها سبع، وقيل: إنها تسمع، وقيل: إنها عشر.

* فهي سبع عند الزوزني وابن الأنباري وابن رشيق وابن عبد ربه، وأصحابها هم: امرؤ القيس وزهير بن أبي سُلمىٰ وطرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حِلّزة وعنترة بن شداد.

أما أبو زيد القرشي فمع أنه يرى أنها سبع إلا أنه يخالفهم في أصحابها، فهم عنده: امرؤ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والنابغة والأعشىٰ. ويُلاحظ أنه أخرج الحارث وعنترة ووضع بدلهما النابغة والأعشىٰ.

* وهي تسع عند ابن النحاس حيث جمع بين الرأيين: رأي الزوزني وجماعته ورأي القرشي، ولم يُسقط أحداً، حيث أضاف للسبعة الذين ذكرهم الزوزني: النابغة والأعشى، وبذلك بلغ عددهم تسعة.

* وهي عشر عند التبريزي: حيث أضاف إليهم: عبيد بن الأبرص.

ـ شروحها:

قام بعض الأدباء وعلماء اللغة بدراسة هذه المعلقات وشرحها وبيان مواطن الحسن والجمال فيها، وتوضيح مفرداتها الصعبة، وتحليل أبياتها، وتفسير الغامض منها. وأهم هذه الشروح: شرح المعلقات السبع للزوزني، وشرح القصائد التسع المشهورات لأبي جعفر النحاس، وشرح القصائد العشر للخطيب التبريزي. وقد طبعت هذه الشروح الثلاثة.

ـ مطالعها:

امرؤ القيس:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بسِقط اللوى بين الدَّخول فحوملِ

زهير بن أبي سُلمىٰ:

أَمِنْ أمّ أوفىٰ دِمنة لم تكلّمِ ... بحومانةِ الدرّاجِ فالمتثلّمِ

طرفة بن العبد:

لخولةَ أطلالٌ ببرقةِ تمهدِ ... تلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ

لبيد بن ربيعة العامري:

عفت الديارُ محلُّها فمُقامُها ... بمنًى تأبّدَ غولُها فرجامُها

عمرو بن كلثوم التغلبي:

ألا هبّي بصحنِكِ فاصبحينا ... ولا تُبقي خمورَ الأندرينا

الحارث بن حِلزّة اليشكري:

آذنتنا ببينها أسماءُ ... رُبَّ ثاوٍ يُملُّ منه الثّواءُ

عنترة بن شدّاد العبسي:

هل غادرَ الشعراء من متردمِ ... أمْ هلْ عرفتَ الدارَ بعدَ توهّمِ

الأعشى: اختلفوا في معلقته: فأبو زيد القرشي روى له القصيدة التي مطلعها:

مـا بـكـاءُ الـكـبـيـر بـالأطـلالِ   وسـؤالـي، ومـا تـردّ سـؤالـي[1]

والتبريزي روى قصيدته التي مطلعها:

ودّعْ هـريـرةَ إن الـركـبَ مـرتـحـلُ   وهـل تُـطـيـقُ وداعـاً أيّـهـا الـرجـلُ

النابغة الذبياني: هو أيضاً اختلفوا في معلقته، فأبو زيد روى له القصيدة التي مطلعها:

عـوجـوا فـحـيّـوا لـنُـعـمٍ دِمـنـةَ الـدارِ   مـاذا تـحـيّـونَ مـن نـؤيٍ وأحـجـارِ[2]

والتبريزي روى قصيدته التي مطلعها:

يـا دارَمـيّـةَ بـالـعـلـيـاءِ فـالـسـنـدِ   أقـوتْ وطـالَ عـلـيـهـا سـالـفُ الأمـدِ

عبيد بن الأبرص:

أقـفـرَ مـن أهـلـهِ مـلـحـوبُ   فـالـقُـطـبـيّـاتُ فـالـذَّنـوبُ

2 ـ المفضليّات:

هي مجموعة شعرية اختارها أبو العباس المفضّل بن محمد بن أبي يعلى الضبّي، ومن هنا جاء اسمها (المفضليَّات).

والضبي شخصية بارزة في تأريخ الأدب العربي، لا يُعرف بالضبط تأريخ مولده، غير أنه يُنسب إلى مدينة الكوفة في العراق مولداً. كان أحد العلماء الأوائل الذين اهتموا بحفظ الشعر العربي القديم وعُنوا بجمعه، وكان ـ إلى جانب ذلك ـ أحد رواه الحديث النبوي الشريف صادق الرواية، واسع الثقافة، ملمّاً بتراث السابقين، وكان له دور سياسي قصير في أوائل العصر العباسي، إلا

(1) الجمهرة ص119.
(2) الجمهرة ص112.

أنه انصرف عن السياسة وتفرّغ للعلم والتعليم، فاتخذه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور معلّماً ومؤدباً لابنه ووليّ عهده المهدي. توفي حوالي سنة 175هـ.

ترك المفضّل الضبّي عدداً من المؤلفات منها: كتاب الأمثال، وكتاب معاني الشعر، وكتاب العروض، وكتاب الألفاظ. إلا أن اسمه يرتبط في الأذهاب دائماً بكتابه (المفضّليات).

والمفضليات نخبة من قصائد الشعراء المقلّين في عصر ما قبل البعثة وأوائل الإسلام. وسبب اختياره لها هو أن الضبي الذي كان معلماً ومؤدباً للخليفة العباسي المهدي عرض عليه مجموعة من الكتب التي ضمّنها الشعر الذي جمعه ودوّنه، وكان قد أشّر بقلمه على عدد من النصوص الشعرية في هذه الكتب. وبعد أن أعجب بها المهدي أخرجها المفضّل وجعلها في مجموعة مختارة على حدة، وعُرفت فيما بعدُ باسم (المفضليات) نسبة إليه.

ويُقال إنه ليست جميع القصائد الواردة في هذه المجموعة من اختيار المفضل الضبي نفسه، فالكتاب يحتوي على مائة وثلاثين قصيدة تقريباً، ويُذكر أن المفضل كان قد اختار في البداية سبعين قصيدة ثم زادها عشراً فأصبحت ثمانين، فجاء تلميذه الأصمعي وزاد عليها عدداً من القصائد من اختياره حتى وصلت إلى هذا العدد، على أن هناك من يفنّد هذا الرأي مثل شوقي ضيف[1] ويعتبره وهماً، أمّا ما يراه صحيحاً فهو أن جميع القصائد الواردة في المفضليات هي من اختيار المفضل والتي رواها تلميذه ابن الأعرابي.

أمّا النصوص المختارة في المفضليات فليست متساوية في الطول، فهناك القصائد الكاملة التي قد يتجاوز عدد أبياتها المائة بيت، إلى جانب عدد من المقطّعات التي وصلت مجزوءة، أو اجتزئت من قصائد كاملة، ويتفاوت عدد أبياتها بين الخمسين بيتاً والبيتين.

(1) العصر الجاهلي ـ ص177.

ويعود القسم الأكبر من هذه المجموعة إلى عصر ما قبل البعثة، ويليه قسم للشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ثم قسم أقل للشعراء الإسلاميين. والمجموعة موزعة على سبعة وستين شاعراً، منهم سبعة وأربعون من عصر ما قبل البعثة.

ولم يتبع نظاماً معيناً في ترتيب هذه القصائد سواء من حيث المضمون أو من حيث القيمة الفنية، ولكن جميعها تدلّ على الذوق العربي القديم.

وقد حظيت المفضليات بنصيب وافر من الشروح والتعليقات على مرّ العصور، فقد نشرها المستشرق الإنجليزي تشالزليال بشرح الأنباري سنة 1920م، ثم نشرها أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون في مصر سنة 1945م في جزئين.

3 ـ الأصمعيات:

وهي لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي الذي وُلد سنة 122هـ وتوفي سنة 216هـ، وكان ـ مثل أستاذه المفضّل الضبّي ـ راوية حافظاً للشعر والحديث والأخبار، محيطاً بتراث أمّته، قضى حياته الطويلة يطوف البوادي ليجمع الشعر والأخبار والنوادر عن الرواة ويدوّنها في محفوظاته، ظل مصاحباً للخلفاء والعلماء والأدباء، ثم عكف على التأليف والكتابة، فترك مجموعة كبيرة من الكتب، طُبع بعض منها.

وعلى غرار ما فعل الضبي في المفضليات قام الأصمعي أيضاً باختيار عدد من النصوص الشعرية الجيدة وجعلها في مجموعة شعرية على حدة. ويبلغ عدد هذه النصوص اثنين وتسعين، وهي موزعة على واحد وسبعين شاعراً منهم أربعون من عصر ما قبل البعثة. وقد وافق أستاذه الضبي في اختيار بعضها، واختار هو النصوص الأخرى، وقد فضّل شعر ما قبل البعثة كما فعل أستاذه الضبّي إذ خصّه بالقسم الأكبر من اختياراته، يليه شعر المخضرمين ثم شعر الإسلاميين. وهذه المجموعة كالمفضليات في الثقة بها وعلوّ درجتها، ولا تكاد

تختلف في مضمونها أو طريقة ترتيبها أو تفاوت عدد الأبيات في النصوص عن اختيار الضبي في المفضليات.

وقد طبعت الأصمعيات أكثر من مرّة، وأهمها الطبعة التي صدرت في مصر سنة 1955م وقام بتحقيقها أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

4 ـ جمهرة أشعار العرب:

وهي مجموعة غنية بالقصائد الطويلة، اختارها أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي من عيون القصائد من شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، وقسّمها إلى سبعة أقسام، في كل قسم سبع قصائد، وقد جعل هذه الأقسام متدرجة مع طبقات الشعراء من عصر ما قبل البعثة إلى العصر الأموي، وقد أطلق على كل مجموعة من القصائد تمثّل طبقة من هذ الطبقات اسماً خاصاً على النحو الآتي:

الطبقة الأولى: أصحاب المعلقات وقد جعلها سبعاً، الطبقة الثانية: أصحاب المجمهرات، الطبقة الثالثة: أصحاب المنتقيات أي المختارات، الطبقة الرابعة: أصحاب المُذَهّبات، وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين ومخضرمين، الطبقة الخامسة: أصحاب المراثي، الطبقة السادسة أصحاب المشوبات، وهي لمخضرمين شابهم الكفر والإسلام، الطبقة السابعة: أصحاب المُلْحمات، وجميعها لإسلاميين.

وقد قيّد القرشي نفسه باختيار قصيدة واحدة لكل شاعر، حتى بلغ مجموعات المختارات تسعاً وأربعين قصيدة.

وقد طُبعت الجمهرة لأول مرة في مطبعة بولاق بمصر سنة 1311هـ ثم تلتها مجموعة من الطبعات التجارية في مصر وكلها مأخوذة عن أصل واحد، وكانت آخر طبعاتها في سنة 1967م بتحقيق علي ممد البجاوي. وطبعت كذلك في دار صادر في لبنان.

5 ـ حماسة أبي تمّام:

وهي من اختيارات أبي تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر العباسي الذي ولد سنة 190هـ وتوفي سنة 231هـ، وكان المقدّم بين شعراء عصره، كما كان كتلة من الذكاء المتوقّد والقريحة المتوهّجة والقدرة الفنية والمتدفقة، وكان حافظاً وراوياً لشعر الأقدمين، متذوقاً له، عارفاً باللغة وأسرارها، وقد عمد في شعره إلى الغموض والتعقيد وتوليد المعاني. ونال شعره اهتماماً كبيراً من نقّاد عصره ونقّاد العصور التالية، وكان موضوع مناقشات وخصومات نقدية عديدة.

وكتاب الحماسة لون من الاختيارات الشعرية حكّم ذوقه الفني فيه، فهو لا يأتي بالقصيدة كاملة مثلما فعل الضبي والأصمعي قبله، وإنما يختار من القصيدة الأبيات والمقاطع التي تناسب ذوقه الفني ومعاييره النقدية. وهي مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين.

جعل أبو تمام مختاراته في عشرة أبواب، يختص كل باب منها بأحد الأغراض المعروفة في الشعر العربي، ووضع في كل باب أجود ما قيل فيه. وهذ الأبواب هي: 1 ـ باب الحماسة. 2 ـ باب المراثي. 3 ـ باب الأدب. 4 ـ باب النسيب. 5 ـ باب الهجاء. 6 ـ باب الأضياف والمديح. 7 ـ باب الصفات. 8 ـ باب السير والنعاس. 9 ـ باب المُلح. 10 ـ باب مذمة النساء.

وقد أقام تبويبه للمختارات على أساس جمع ما هو متجانس من المضامين في باب واحد، ففي باب الأضياف والمديح جمع بين الفخر بالكرم والمروءة والمديح لما بدا له من المشاكلة بينهما، إذ أنّ الفخر والمديح يشتركان في ذكر الصفات المحمودة في الإنسان، ولكنه يغفل المشاكلة بين الرثاء والمديح. وفي باب السير والنعاس جمع بين ما قيل في الرحلة والسرى بالليل وما يعتري المسافر بالليل من غلبة النعاس والإرهاق، وكذلك الأمر في باب الصفات، ويقصد به الوصف سواء كان وصفاً لمشاهد طبيعية أو كائنات حيّة.

وقد عُرفت هذه الاختيارات واشتهرت باسم الباب الأول منها، وذلك من

باب إطلاق الجزء على الكل، كما أن باب الحماسة كان أكبر أبواب الكتاب، إذْ يحتلّ ثلث الاختيارات تقريباً، وأيضاً لما للحماسة والحديث عن الشجاعة والفتوة من جذور عميقة في الوجدان العربي.

وقد حظيت الحماسة بشهرة واسعة، وقام الكثيرون بشرحها والتعليق عليها. ومن أشهر هذه الشروح شرح المرزوقي والتبريزي، ونشرت الحماسة بشرح التبريزي مرّات عدّة كان آخرها بتحقيق محي الدين عبد الحميد في أربعة أجزاء سنة 1938م في القاهرة، وأعاد الأستاذان: أحمد أمين وعبد السلام هارون تحقيق الحماسة ونشرها بشرح المرزوقي في أربعة أجزاء بين سنتي 1951 ـ 1953م في القاهرة.

6 ـ حماسة البحتري:

اختارها أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري الشاعر العباسي الرقيق المتوفىٰ سنة 284هـ، وقد تأثر بابن قبيلته أبي تمام الطائي وسار على نهجه في مجال التصنيف، حيث صنّف حماسة خاصة به صنعها للوزير الفتح بن خاقان في عهد الخليفة المتوكل.

ومختاراته في هذه الحماسة عبارة عن مقطوعات قصيرة موزعة على 174 باباً، وأكثر أبوابها في نزعات خلقية وحربية، حيث فصّل في ذكر جزئيات من الحماسة مثل: التحريض على القتل بالثأر، ومكاشفة الأعداء وترك التستر منهم، وحمل النفس على المكروه والفتك بالأعداء، وغير ذلك من مثل هذه التفاصيل الدقيقة.

ولم تحظ حماسة البحتري بنصيب وافر من الشروح مثل ما حظيت به أختها حماسة أبي تمام، حيث لم يُعنَ القدماء بشرح حماسة البحتري، ويبدو أنهم رأوها أقلّ أهمية من حماسة أبي تمام.

وقد طبعت في بيروت سنة 1910 بتحقيق لويس شيخو.

7 ـ الدواوين الشعرية:

هناك مجموعة من دواوين الشعراء طُبعت ونُشرت في العصر الحديث، أهمها دواوين الشعراء الستة الجاهليين التي نشرها المستشرق آلورد وهؤلاء الشعراء هم: امرؤ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة. كما طبعت دواوين أخرى لمجموعة من الشعراء مثل ديوان: لبيد وعلقمة وحاتم الطائي وعروة بن الورد والشنفرىٰ وأوس بن حجر وعبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل وغيرها من الدواوين.

ومن دواوين القبائل نُشر ديوان هذيل الذي يقع في خمس مجموعات حيث طبعت المجموعة الأولى في لندن سنة 1854م والثانية في برلين سنة 1887م والثالثة في هانوفر 1926م والرابعة في ليبزج سنة 1933م والخامسة في مصر سنة 1950م.

هذا بالإضافة إلى ما حوته الكتب القديمة التي ألّفت في مختلف العلوم والفنون ومن شعر ما قبل البعثة، وهي عديدة ومتنوعة بين الأمالي والتأريخ والشرح والنقد وذلك مثل: شرح النقائض لأبي عبيدة وطبقات الشعراء لابن سلاّم والشعر والشعراء لابن قتيبة والكامل للمبرد والحيوان والبيان والتبيين للجاحظ والأمالي لأبي علي القالي ومعجم الشعراء للمرزباني والعمدة لابن رشيق والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وغيرها من المؤلفات.

نماذج من المعلقات

معلقة لبيد بن ربيعة

نبذة عن لبيد(*):

هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري، وكنيته أبو عقيل، وأمه تامر بنت زنباع من بني عبس، تزوجها أولاً جَزْء بن خالد بن جعفر فولدت له عمراً المعروف بلقب أربد، ثم تزوجها ربيعة بن مالك فولدت له لبيداً، ثم أن ربيعة قُتل في يوم (ذي عَلَق) الذي كان قبل يوم شِعب جبلة، وكان لبيد في السنوات الأولى من طفولته، فكفله أعمامه وأشهرهم أبو بَراء عامر بن مالك المشهور بلقب (مُلاعب الأسنّة) ونشأ لبيد في نعمة من العيش، فقد كان أبوه من الأغنياء الكرماء حتى اكتسب لقب (ربيعة المقترين ـ وربيع المقترين)، ثم نَعِمَ أيضاً بمثل تلك النعمة في كفالة أعمامه، غير أن تلك النعمة لم تدم طويلاً فقد وقع شقاق بين فرعين من بني عامر فغُلب بنو جعفر رهط لبيد على أمرهم، ثم تركوا ديارهم في نجد وانتقلوا جنوباً ونزلوا في أرض كانت خاضعة لليمن، وبعد فترة عاد لبيد وقومه إلى مساكنهم الأولى، واتصل لبيد بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة، وفي بلاطه تعرّض لبيد لهجاء نفر من الشعراء استطاع أن يردّ على بعضهم، وكان من الشعراء الأشراف المجيدين ومن أصحاب المعلقات بإجماع الرواة. فقد عُدّ في أصحاب المعلقات السبع، وكان لبيد قبل الإسلام خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ويعدّ أيامهم ووقائعهم وفرسانهم، وشعره فخم شريف المعاني يدور أكثره على الحماسة والفخر والمديح والرثاء والوصف، ومعلقته بدوية الخصائص، وشعره قصيد ورجز.

ولما جاء الإسلام وفدَ على الرسول ﷺ في السنة الثامنة للهجرة جماعة من بني عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد أخو لبيد ولكن الله لم يشرح صدر

(*) ينظر: تأريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ 1/ 231.

هؤلاء للإسلام، وقد اتفق أن توفي عامر بن الطفيل بعد أيام، ثم قُتل أربد بعد بضعة أيام أخر، قيل سقطت عليه صاعقة فأحرقته، وقيل بل أكله الأسد أو الذئب، وفي العام التالي جاء وفد من بني عامر إلى المدينة وكان فيهم لبيد فأسلم أعضاء الوفد كلهم في هذه المرة، وبعد أن أسلم لبيد هاجر إلى المدينة وسكن فيها، ولكن إسلامه لم يحسن في أول الأمر فقد عدّه مؤرخو الإسلام في المؤلفة قلوبهم، وهم الذين يُعطون حتى يثبتوا على الإسلام. ولما بُنيت البصرة والكوفة في سنة 14هـ في أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه انتقل لبيد إلى الكوفة وسكنها وكتب اسمه في ديوانها، وكان عطاؤه ألفي درهم في العام، وفي الكوفة توفي لبيد بعد أن جاوز عمره المائة عام، وذلك بين سنة 35 ـ 38هـ.

أما بالنسبة لشعر لبيد فقد اختلف فيه الرواة والنقاد، فمنهم من يزعم أن لبيداً لم يقل في الإسلام شعراً، ومنهم من يقول إن شعر لبيد في الإسلام كان كثيراً، وقيل: إنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً هو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

ومنهم من روى له أبياتاً قالها بعد أن بلغ من العمر سبعاً وسبعين سنة وبعد أن بلغ التسعين وبعد أن بلغ المائة وبعد أن جاوزها، والبيت الذي قاله بعد أن جاوز المائة هو:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناسِ: كيف لبيد؟

وجميع الرواة والنقاد متفقون على أن فيض قريحة لبيد بالشعر كان قبل الإسلام، حيث أجاد في رثاء أخيه أربد بقصائد تُعد من عيون شعر الرثاء، منها قصيدته التي مطلعها:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى المباني بعدنا والمصانع

ورثاه بقوله:

ما إن تعدّى المنون من أحد لا والدٍ مشفقٍ ولا ولدِ

ولما حضرت لبيداً الوفاةُ أوصىٰ ابن أخ له بحُسن دفنه، ولم يكن للبيد ولد ذكر، ثم أنشد قصيدة طويلة منها:

وإذا دفـنـت أبـاك فـاجـعـل فـوقـه خـشـبـاً وطـيـنـاً

بعدئذ أنشد في ابنتيه أبياتاً مطلعها:

تـمـنّىٰ ابـنـتـاي أن يـعـيـش أبـوهـمـا وهـل أنـا إلا مـن ربـيـعـة أو مـضـر

من معلقة لبيد(*):

عـفـتِ الـديـارُ مَـحَـلُّـهـا فَـمُـقـامُـهـا بـمـنًـى تـأبَّـد غَـوْلُـهـا فَـرِجـامُـهـا[1]

فـمـدافـعُ الـرّيـانِ عُـرّيَ رسـمُـهـا خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحيَّ سِلامُها[2]

دِمَـنٌ تـجـرّمَ بـعـدَ عـهـدِ أنـيـسِـهـا حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلالُها وحرامُها[3]

رُزَقـتْ مـرابـيـعَ الـنـجـومِ وصـابَـهـا وَدْقُ الـرواعـدِ جـودُهـا فـرهـامُـهـا[4]

مـن كـلِّ سـاريـةٍ وغـادٍ مُـدْجـنٍ وعـشـيـةٍ مـتـجـاوبٍ إرزامُـهـا[5]

فـعـلا فـروعُ الإيـهـقـانِ وأطـفـلـتْ بـالـجـهـلـتـيـنِ ظـبـاؤهـا ونـعـامُـهـا[6]

والـعـيـنُ سـاكـنـةٌ عـلـى أطـلائـهـا عُـوذاً تـأجّـلَ بـالـفـضـاءِ بِـهـامُـهـا[7]

(*) جمهرة أشعار العرب ـ القرشي ص129 ـ 138 دار صادر، وشرح القصائد التسع المشهورات ـ ابن النحاس ص359 ـ 450 بغداد 1983، وديوان لبيد ص297 وما بعدها.

(1) عفت الديار: درست وامحت آثارها، محلها: ما كانت الإقامة فيه قصيرة، مقامها: ما كانت الإقامة فيه طويلة، منى: موضع، تأبّد: توحّش، الغول والرجام: جبلان.

(2) مدفع الريان: مجرى الماء في وادي الريان، الوحي: الواحد وحي: الكتاب، السلام: الحجارة.

(3) تجرّم: مضىٰ.

(4) المرابيع: أوائل الأمطار في الربيع، النجوم: يريد بها الأنواء، الودق: المطر، جودها: غزارتها، ورهامها: لينها وصغيرها.

(5) السارية: السحابة تسير بالليل، غاد: يسير بالغداة، مدجن: مظلم، الأرزام: صوت الرعد.

(6) الأيهقان: الجرجير البري، أطفلت: أصبحت ذات الأطفال، الجهلتين: الجهتين.

(7) العين: الواحد عيناء: البقرة، أطلاؤها: أولادها، العوذ: جمع عائذ: الحديثة النتاج لأن ولدها يعوذ بها، تأجّل: تجمّع، البهام: أولاد الضأن والمعز والبقر.

وجلا السيولُ عن الطلولِ كأنها ... زُبُرٌ تُجِدُّ متونَها أقلامُها[1]

أو رجعُ واشمةٍ أسِفَّ نَؤورُها ... كِففاً تعرّضَ فوقهُنَّ وِشامُها[2]

فوقفتُ أسألها، وكيف سؤالنا ... صُمًّا خوالدَ ما يَبينُ كلامُها

بلْ ما تَذكّرُ من نوارَ وقد نأتْ ... وتقطّعتْ أسبابُها ورِمامُها[3]

مرّيَةٌ حلّتْ بفيدَ وجاورتْ ... أهلَ الحجازِ فأينَ منك مرامُها[4]

فاقطع لُبانة من تعرّضَ وصلُهُ ... ولشرُّ واصلِ خُلّةٍ صَرّامُها[5]

واحبُ المجاملَ بالجزيلِ، وصرمهُ ... باقٍ إذا ظَلعتْ وزاغَ قِوامُها[6]

أقضي اللّبانةَ لا أفرّطُ ريبةً ... أو أنْ يلومَ بحاجةٍ لُوّامُها[7]

أو لم تكنْ تدري نوارُ بأنني ... وصّالُ عقدِ حبائلٍ جَذّامُها[8]

ترّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرْضَها ... أو يرتبطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها[9]

بل أنتِ لا تدرينَ كمْ من ليلةٍ ... طلقٍ لذيذٍ لهوها ونِدامُها[10]

قد بتُّ سامرَها وغايةَ تاجرٍ ... وافيتُ إذ رفعتْ وعزّ مُدامُها[11]

---

(1) الزبر: الواحد زبور: الكتاب.

(2) النؤور: ما يتخذ من دخان السراج والنار، أسفّ: ذُرّ، كففاً: مستديرات، تعرّض: ظهر.

(3) نوار: اسم حبيبته، الأسباب: الحبال والصلات، الرمام: واحدتها رمة: القطعة من الحبل البالي.

(4) مرية: من بني مرة، فيد: موضع في طريق مكة، أين منك مرامها: كيف تستطيع الوصول إليها.

(5) اللبانة: الحاجة، تعرّض: تغيّر، أي استغن عن صداقة الذين يصادقونك لمصلحتهم.

(6) أحب: اعطِ، ظلعت: مالت مودته عنك، قوامها: ملاكها.

(7) اللبانة: الحاجة (أقوم بواجبي) ولا أدع لأحد سبيلاً إلى لومي، أفرط: اترك.

(8) الحبائل: استعارها للعهد والمودة، الجذم: القطع، أي أنني قادر على إقامة الصلات وقطعها متى شئت.

(9) بعض النفوس: أراد نفسه، يرتبط: يحبس.

(10) الطلق: لا حر فيها ولا برد، الندام: الندماء ـ المنادمة.

(11) غاية تاجر: أي راية تاجر يبيع الخمر، عز: غلا، مدامها: ثمن خمرها.

أغلي السباءَ بكلِّ أدكنَ عاتقٍ — أو جونةٍ قُدحَتْ وفُضّ خِتامُها[1]

لِصَبُوحِ صافيةٍ وجذبِ كرينةٍ — بموتّرٍ تأتالهُ إبهامُها

باكرتُ حاجتَها الدجاجَ بسُمرةٍ — لأعلَّ منها حينَ هَبَّ نِيامُها[3]

وغداةَ ريحٍ قد وزعتُ وقِرّةٍ — إذْ أصبحتْ بيدِ الشَّمال زِمامُها[4]

ولقد حميتُ الخيلَ تحملُ شكّتي — فُرْطٌ وشاحي، إذ غدوتُ، لِجامُها[5]

حتى إذا ألقتْ يداً في كافرٍ — وأجنَّ عوراتِ الثغورِ ظَلامُها[6]

أسهلتُ وانتصبتْ كجذعِ منيفةٍ — جرداءَ يَحْصَرُ دونها جُرّامُها[7]

وجزورِ أيسارٍ دعوتُ لحتِفها — بمغالقٍ متشابهٍ أعلامُها[8]

أدعو بهنَّ لعاقرٍ أو مطفلٍ — بُذِلَتْ لجيرانِ الجميعِ لِحامُها

فالضيفُ والجارُ الغريبُ كأنّما — هبطا تبالة مُخصِباً أهضامُها[9]

تأوي إلى الأطنابِ كلُّ رَذيّةٍ — مثلِ البليةِ قالصٍ أهدامُها[10]

ويُكلّلونَ إذا الرياحُ تناوحتْ — خُلُجاً تُمَدُّ شوارعاً أيتامُها[11]

---

(1) السباء: شراء الخمر، أدكن عاتق: زق خمر أسود اللون، جونة: سوداء، قدحت: خُرقت، فض ختامها: أزيل ما كان عليها من الليف والقار.

(2) الكرينة: الجارية العوادة، الموتر: العود، تأتاله: تعالجه.

(3) باكرت حاجتها الدجاج: شربتها قبل صياح الديك، أعل منها: اشرب منها شيئاً بعد شيء.

(4) قرة: باردة.

(5) الشكة: السلاح الكامل، فرط: فرس سريعة، وشاحي لجامها: أضع لجامها على كتفي.

(6) ألقت يداً: يعني الشمس، الكافر: الليل، أجن: ستر، العورات: جمع عورة: المخافة.

(7) أسهلت: نزلت إلى السهل، انتصبت: رفعت عنقها يريد الفرس، جذع منيفة: نخلة عالية، جرداء: عنق فرسه أجرد، الجرّام مفردها جارم: الذي يتسلق النخلة ليقطف ثمرها.

(8) الأيسار: صاحب اليسر، المغالق: سهام الميسر.

(9) تبالة: قرية في نجد، أهضامها: الواحد هضيم: المطمئن من الأرض.

(10) الرذية: الناقة التي تردى في السفر، البلية: الناقة التي تشد على قبر صاحبها، القالص: القصير، الأهدام: الأخلاق من الثياب.

(11) التكليل: وضع اللحم بعضه فوق بعض، الخلج: الجفان، شوارعاً: الممدودة أيديهم للأكل.

إنّا إذا التقتِ المجامعُ لم يزلْ مِنّا لِزازُ عظيمةٍ جشّامُها[1]

ومُقسّمٌ يُعطي العشيرةَ حَقَّها ومُغذمِرٌ لحقوقِها هَضّامُها[2]

فَضْلاً وذو كَرمٍ يُعينُ على الندى سمحٌ كسوبُ رغائبٍ غنّامُها[3]

من معشرٍ سنّتْ لهم آباؤهُمْ ولكلِّ قومٍ سُنّةٌ وإمامُها

إنْ يفزعوا تُلقَ المغافِرُ عندَهم والسّنُّ تلمعُ كالكواكبِ لامُها[4]

لا يطبعونَ ولا يبورُ فعالُهمْ إذْ لا تميلُ معَ الهوى أحلامُها[5]

فبنوا لنا بيتاً رفيعاً سَمْكُهُ فسما إليهِ كهلُها وغلامُها

فاقنعْ بما قسمَ المليكُ فإنما قَسمَ الخلائقَ بيننا علاّمُها[6]

وإذا الأمانةُ قُسّمتْ في معشرٍ أوفىٰ بأعظمِ حظّنا قَسّامُها

فهمُ السعاةُ إذا العشيرةُ أفظِعتْ وهُمُ فوارسُها وهمْ حُكّامُها[7]

وهمُ ربيعٌ للمجاورِ فيهمُ والمُرملاتِ إذا تطاولَ عامُها[8]

وهمُ العشيرةُ أنْ يُبّطيءَ حاسدٌ أوْ أنْ يميلَ معَ العدوِّ لئامُها[9]

---

(1) لزاز عظيمة: الذي يتصدى للمشاكل العظيمة، جشّامها: الذي يحاول حلها.

(2) مقسّم: الذي يقسم الغنائم، المغذمر: المتغضب مع همهمة.

(3) الغنّام: مبالغة: الغانم.

(4) المغافر: الواحد مغفر: زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة.

(5) لا يطبعون: لا يفسدون، لا يبور فعالهم: لا تهلك أفعالهم وتذهب سدى.

(6) المليك: من أسماء الله الحسنى، وكذلك! علاّمها، فالله هو الذي يقسّم المعايش بين الخلائق.

(7) السعاة: الفرسان الذين يسعون بدفع الأمر العظيم الذي تفظع به العشيرة أي تصاب به.

(8) المرملات: اللواتي فقدن زادهن، تطاول عامها: طال الجدب عليها واشتد.

(9) أن يبطئ حاسد: أراد كراهية أن يبطئ حاسد بعضهم عن نصرة بعض، أو أن يميل مع الأعداء.

تحليل المعلقة:

تناولت المعلقة وصفاً دقيقاً للبيئة البدوية الصحراوية وما ـ ٍ ' ىن حيوانات ونباتات وظواهر طبيعية، بدأها بوصف الديار المقفرة التي أصبحت رسوماً دارسة، محدداً مكان هذه الديار وموقعها، ذاكراً قِدَمها وما مرّ عليها من أشهر وسنين طويلة، وكيف سقطت فيها الأمطار، ونبتت الأعشاب، وعلا نبات الأيهقان، وولدت فيها الظباء والنعاج وفرخت النعام، وراحت صغارها تمرح وترتع على مرأى من أمهاتها. وكل هذه الأشياء تشكّل صورة جميلة تعجّ بالحياة والحركة وبالألوان الزاهية، حيث أخصب الوادي بأنواع الزرع، والحيوانات من الظباء والنعام والأبقار تلهو وتمرح وهي ترقب أولادها التي تتجمع قطعاناً حولها، والسيول تركت بقايا الديار مثل سطور الكتاب التي تُرىٰ ولا تُلمس، أو هي مثل الوشم الذي ينقش على جسم الإنسان والذي كان شائعاً في ذلك العصر. ثم راح يسائل هذه الأطلال الدارسة عن أهلها وأصحابها، وأين رحلوا؟ وإلى أي وجهة اتجهوا؟ وفي أي مكان نزلوا واستقروا؟ ولكن أنّىٰ لها أن تجيب وهي حجارة صمّاء لا تسمع ولا تدرك ولا تعي ولا ترى. إلا أنه مع ذلك راح يتخيل الأماكن التي مرّت بها حبيبته نوار والطرق التي سلكتها، والمنازل التي نزلتها، ويبدو أنه يشعر بالمتعة والحنين بذكر هذه المواضع، ويلتذ ويأنس حين يسميها أو يشير إليها، وهكذا كان يفعل في معظم شعره، إذ أنه مولع بذكر المنازل والأماكن التي له ارتباط بها.

وبعد أن يروي غلّته في الحديث عن الطلل وما فيه من ذكريات ينتقل إلى موضوع آخر، ويتخلص بذكاء ليغادر موضوعه الأول ويحسن الانتقال إلى الموضع الذي يليه دون خلل أو انقطاع، بل تنساب معانيه انسياباً بحيث لا يشعر القارىء بالنقلة، بل يحس أنه في موضوع جديد ولكنه متصل بالأول وكأنه امتداد له. حيث راح يفتخر بخصاله الحميدة وصفاته المجيدة بعد أن دعا إلى ترك من لا يواصل مودّته، ولا يديم علاقته، بينما هو يفي بالعهد ويمنح الود لمن يشاء، كما أنه يقطع الصلات متى شاء. ولا يرتاد الأماكن التي لا ترضيه ولا

يجد فيها العز والكرامة، وإنما هو شريف أبيّ لا ينزل إلا في مواطن تحفظ له عزّه وكبرياءه:

تـرّاك أمـكـنـة إذا لـم أرْضـهـا أو يـرتـبـط بعض الـنـفـوس حِـمـامُـهـا

وينفق في هذه الأماكن الرفيعة من أمواله دون حساب من أجل أن يجد السرور والمتعة والراحة.

ثم راح يتحدث عن كرمه وقت القحط والجدب في الشتاء البارد، وكيف دفع عن الجياع هذه الضائقة. وقد استعان بخياله الواسع في رسم صورة بارزة لكرمه في تلك الأوقات العصيبة، مستخدماً الاستعارة لا سيما الاستعارة المكنية التي هي أعزّ مطلباً وأبعد منالاً من الاستعارة التصريحية. من ذلك قوله:

وغـداةَ ريـحٍ قـد وزعـتُ وقِـرّةٍ إذ أصـبـحـت بـيـد الـشـمـال زِمـامُـهـا

فقد جعل للغداة زماماً، وللشمال يداً تتحكم في زمام الغداة، ومثل قوله:

حـتـى إذا ألـقـت يـداً فـي كـافـر وأجـنّ عـورات الـثـغـور ظـلامُـهـا

حيث جعل للشمس يداً ألقتها في يد الليل وهو الذي سمّاه كافراً أي ساتراً.

وسر الإبداع في هذه الاستعارات أنها تقوم على الخيال الواسع الذي لا يقدر عليه إلا كبار الشعراء المبدعين من أمثال لبيد.

ثم راح يتحدث عن إكرامه الضيف والجار وكيف ينحر لهم الجزور ليقدم لهم طعاماً شهيّاً، حيث يبالغ في إكرامهم ويملأ الجفان باللحم ليشعروا بأن المال وفير والخير كثير فتطيب نفسهم للأكل:

فـالـضـيـف والـجـار الـغـريـب كـأنـمـا هـبـطـا تـبـالـة مُـخـصـبـاً أهـضـامـهـا

ويستمر في الفخر بنفسه وبقومه مشيداً بما لهم من المحامد والمآثر وبأنهم يتصدّون للأمور العظيمة والمشاكل الكبيرة فيتجشمون ركوبها ويقومون بحلّها، هذا بالإضافة إلى كثرة انتصاراتهم في الحروب وما يحصلون عليه من الغنائم،

حيث يقوم رجل منهم بتوزيع هذه الغنائم ويقسمها بين أفراد القبيلة محاولاً أن يعمّ جوده جميع أبناء العشيرة.

بعد ذلك راح يفخر بأخلاقهم الرفيعة، وسيرتهم الحسنة، وتقاليدهم الحميدة التي استنها آباؤهم الكرام وأجدادهم العظام:

مـن مـعـشـر سـنّـت لـهـم آبـاؤهـم ولـكـل قـوم سُـنّـة وإمـامـهـا

وهم شجعان وإذا دُعوا إلى حرب أو نجدة وجدتهم يتسابقون إلى ساحة الوغىٰ وقد لبسوا الدروع، ودخلوا في عدة القتال، وأخذوا الأهبة والاستعداد. وهم مع هذه القوة يتمتعون بعقل راجح وحلوم رزنة راسخة كالجبال لا تميل مع الهوى. وبذلك أرسوا قواعد مجد شامخ ارتقىٰ إليه الكهل والغلام. ولهم مع هذه الحلوم الراجحة حظ وافر من الأمانة والوفاء تسمو على ما أعطي الآخرون منها:

وإذا الأمـانـة قُـسّـمـتْ فـي مـعـشـر أوفـىٰ بـأعـظـم حـظـنـا قـسّـامـهـا

ثم جمع كل ما يتمتعون به من صفات الخير والصلاح والقوة والكرم في الأبيات الأخيرة من المعلقة، فذكر أنهم الفرسان في سوح القتال، وهم الحُكّام في مجالس القبائل حين يجتمعون لفض الخصومات والمنازعات وعقد الصلح والمفاوضات. وهم الربيع الذي يحيى الأرض بعد جفافها، ويبعث الحياة في الناس والحيوان والنبات، ويقضي على الفقر والبؤس والفاقة. وهم سند لمن لا سند له، وعشيرة من يبحث عن عشيرة، وعون لمن يحتاج العون.

لقد رسم لبيد في هذه المعلقة لوحة كبيرة جميلة فيها مجموعة من الصور الباهرة، رسمها بإتقان، وأبدعَ في استخدام كل العناصر التي تجعل المشهد جميلاً، حيث تلاحمت عناصر الزمان والمكان والحركة واللون في انسجام بالغ الجودة، وكأن الصور تتحدث عن نفسها، وتخاطب المستمع والمشاهد.

معلقة طرفة بن العبد

نبذة عن طرفة:

هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة البكري، ويرجع نسبه إلى معد بن عدنان. وطرفة ـ بالتحريك ـ في الأصل واحد الطرفاء: وهو الأثل.

أمّا أمه فهي وردة بنت قتادة بن مشنوء بن عمرو بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة. وهو ابن أخت الشاعر المتلمس، وابن أخ الشاعر المعروف بالمرقش الأصغر، فأخذ الشعر من أعمامه ومن أخواله.

وكان مولد طرفة في البحرين حوالي سنة (538م) على سبيل الترجيح، وقد مات أبوه وهو طفل صغير، فعاش يتيم الأب هو وأخوه معبد، وقد ظهرت علامات الذكاء على طرفة في سنّ مبكرة، ويقال إنّ أول شعر قاله وهو ابن سبع سنين، مما يدل على نبوغه المبكّر. وقد شبّ معتمداً على نفسه، منفرداً في اتخاذ قراراته، مما جعله يقوم بتصرفات لا ترضي أهله وأقاربه وأبناء عشيرته، حيث انصرف إلى حياة اللهو والمجون ومعاقرة الخمرة، ومعاشرة النساء، فأنفق كل ما يملك من أموال على هذه الأمور، فلامَهُ أهله وأقاربه، وابتعد عنه أبناء العشيرة وتحاموا الاختلاط به، فأحس بنفسه وحيداً، فراح ينتقل من مكان إلى آخر، ويخالط الصعاليك، حتى استقر به المقام في فناء قتادة بن سلمة الحنفي باليمامة، وظل يمدحه، ثم ارتحل إلى اليمن وإلى الحبشة. إلا أنه لم يستطع تحمّل فراق أهله وقومه فعاد إلى ديارهم، وظل بينهم مدة من الزمن، وفي هذه الأثناء نظم معلقته المشهورة التي تربو على مائة بيت. فلما ضاقت به الحال ذهب برفقة خاله المتلمس إلى عمرو بن هند ملك الحيرة، الذي كان يجزل العطاء للشعراء، فأكرم وفادة طرفة وخاله، وظلّا فترة في ضيافته، وأصبحا في حاشية قابوس ابن المنذر أخي الملك، وكان يصحبهما معه إذا خرج إلى الصيد، ويقال: إن طرفة كان يهجو الملك سراً، حتى وصل الملك ذلك الهجاء،

فغضب عليه، وأضمر له الحقد، إلا أن الملك كان يقرّب إليه طرفه وخاله لئلا يشعرا بما يبيته لهما. وكتب لهما كتابين أوهمهما أن فيهما عطاء وهدية لهما، وأرسلهما إلى عامله على البحرين ربيعة بن الحارث العبدي كي يحصلا منه على ما أمر لهما من عطاء. وانطلق طرفة وخاله المتلمس إلى البحرين، وفي طريقهما أعطى المتلمس كتابه إلى غلام من غلمان الحيرة لينظر ما كتب فيه لأنه كان يشك في نية الملك، وجاء غلام آخر ونظر في الصحيفة فقرأها وقال: ثكلت المتلمس أمه، فانتزع المتلمس الصحيفة من يد الغلام وألقاها في نهر الحيرة، وطلب من طرفة أن يفعل مثل ما فعل، فأبىٰ طرفة ذلك وقال لخاله: لئن كان اجترأ عليك ما كان بالذي يجترئ عليّ، فسار المتلمس إلى الشام، وسار طرفة إلى البحرين حتى إذا أتى عاملها دفع إليه الكتاب فقرأه فقال: هل تعلم ما أمرت به فيك؟ قال: نعم، أمرت أن تجيزني وتحسن إليّ. فقال العامل: إن بيني وبينك لخؤلة أنا لها راعٍ فاهرب من ليلتك هذه فإني قد أمرت بقتلك. فقال له طرفة: اشتدت عليك جائزتي وأحببت أن أهرب، والله لا أفعل ذلك أبداً. فلما أصبح أمر بحبسه وكتب إلى الملك عمرو بن هند أن أبعث عاملاً غيري ليقوم بقتل طرفة فأنا غير قاتل الرجل. فعيّن الملك رجلاً من بني ثعلب وقام بتنفيذ أمر الملك وقتل طرفة. فانتهت حياة هذا الشاعر وكان له من العمر ست وعشرون سنة أو أقل من ذلك أو أكثر بقليل.

من معلقة طرفة(*):

لِـخَـولَـةَ أطـلالٌ بـبـرقَـةِ ثَـهـمَـدِ　　تلوحُ كباقي الوشمِ في ظاهرِ اليدِ[1]

وقـوفاً بـهـا صَـحـبي عـليَّ مـطـيَّـهـمْ　　يـقـولـونَ لا تـهـلـكْ أسىً وتـجـلّـدِ[2]

(*) تم اختيار نصف المعلقة تقريبا ـ ينظر: الجمهرة ص149 ـ 160: وشرح القصائد التسع المشهورات ص207 إلى ص296.

(1) خولة؛ اسم امرأة من بني كلب، الأطلال: جمع طلل: ما شخص من رسوم الدار، البرقة: مكان اختلط ترابه بحجارة وحصى، ثهمد: اسم مكان، الوشم: غرز ظاهر اليد وغيره بأبرة.

(2) المطي: جمع مطية: وهي الراحلة، الأسىٰ: الحزن وشدة الجزع، تجلّد: كن جلداً صبوراً.

كأنّ حُدوجَ المالكيةِ غدوةً خلايا سفينٍ بالنواصفِ من دَدِ[1]

عدوليةٌ أو من سفينِ ابن يامنٍ يجورُ بها الملاحُ طوراً ويهتدي[2]

يَشقُّ حَبابَ الماءِ حيزومُها بها كما قسمَ التربَ المفايلُ باليدِ[3]

وفي الحيّ أحوى ينفضُ المَردَشادنٌ مُظاهِرُ سمطيْ لؤلؤٍ وزبرجدِ[4]

خذولٌ تراعي ربرباً بخميلةٍ تناولُ أطرافَ البريرِ وترتدي[5]

وتبسمُ عن ألمى كأنَّ منوَراً تخلّلَ حُرَّ الرملِ دِعصٌ لهُ ندِ[6]

سقتهُ إياةُ الشمسِ إلا لِثاتِهِ أسفَّ ولم تكدْم عليهِ بأثمِدِ[7]

ووجهٌ كأنَّ الشمسَ ألقتْ رداءَها عليهِ، نقيُ اللونِ لم يتخددِ[8]

وإنّي لامضي الهمَّ عندَ احتضارهِ بعوجاءَ مِرقالٍ تروحُ وتغتدي[9]

---

(1) الحدوج: جمع حِدج: وهو مركب من مراكب النساء، المالكية: منسوبة إلى بني مالك، الخلايا، جمع خلية: وهي السفينة العظيمة، النواصف: الرحبة الواسعة، دد: اسم موضع.

(2) عدولية: نسبة إلى عدولي وهي قبيلة من البحرين، يجور: يعدل عن القصد والطريق، طوراً: تارة أو حيناً، يهتدي: يعرف قصده.

(3) حباب الماء: زَبده وأمواجه، الحيزوم: الصدر، المفايل الذي يلعب بالفيال: وهي أن يجمع المقامر تراباً ثم يخبئ فيه شيئاً ثم يقسمه، ويسأل عن الدفين أين هو؟ فمن أصاب ظفر وربح، ومن أخطأ خسر.

(4) أحوى: ظبي في ظهره خطتان خضراوان، المرد: ثمر الأراك، شادن: ظبي ليس بالكبير، مظاهر: لبس عقداً فوق عقد، السمط: الخيط الذي نظمت فيه الجواهر.

(5) خذول: تخلفت عن صواحباتها، تراعي: ترعىٰ، ربرب: قطيع من الظباء، الخميلة: الأرض ذات الشجر، البرير: ثمر الأراك، ترتدي: تلبس.

(6) ألمىٰ: أسمر، المنور: الأقحوان الذي ظهر زهره، تخلل: دخل في وسطه، حر الرمل: خالصه، دعص: كتيب من الرمل، ندى: أي عليه الندى.

(7) إياة الشمس: شعاعها، اللثات: جمع لثة: وهي مغرز الأسنان، أسف: ذر عليه، تكدم: الكدم: العض، الإثمد: المكحل.

(8) لم يتخدد: لم يتشنج ويتغضن.

(9) العوجاء: الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها، المرقال: نوع من الجري بين السير والعدو، وأمضيت الهمّ: إذا صرفته عنك.

أمــونٍ كــألــواحِ الأرانِ نــســأتُــهــا عــلــى لاحــبٍ كــأنــهُ ظــهــرُ بُــرْجُــدِ[1]
جــمــالــيــةٍ وجــنــاءُ تــردي كــأنّــهــا سَــفــنّــجــةٌ تــبــري لأزعــرَ أَرْبَــدِ[2]
تُــبــاري عِــتــاقــاً نــاجــيــاتٍ واتــبــعــتْ وَظــيــفــاً وظــيــفــاً فــوقَ مَــوْرٍ مُــعــبّــدِ[3]

* * *

على مِثلها أمضي إذا قالَ صاحبي ألا ليتني أفديكَ منها وأفتدي[4]
وجاشتْ إليهِ النفسُ خوفاً وخالَهُ مُصاباً ولو أمسىٰ على غيرِ مَرْصدِ[5]
إذا القومُ قالوا: من فتًى؟ خلتُ أنني عُنيتُ، فلم أكسلْ ولم أَتبلّدِ[6]
ولستُ بحلّالِ التلاعِ مخافةً ولكنْ متى يسترفدِ القومُ أرفِدِ[7]
فإنْ تبغني في حلقةِ القومِ تلقني وإنْ تلتمسني في الحوانيتِ تصطدِ[8]
متى تأتِني أصحبْكَ كأساً رويّةً وإنْ كنتَ عنها ذا غنًى فاغنَ وازددِ
وإن يلتقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقني إلى ذِروةِ البيتِ الشريفِ المعمّدِ[9]
نداماي بيضٌ كالنجومِ وقينةٌ تروحُ علينا بن بُردٍ ومُجْسَدِ[10]

---

(1) أمون: التي يؤمن عثارها، ألواح الأران: خشب التابوت، نسأتها: ضربتها بالمنسأة وهي العصا، لاحب: طريق واضح، برجد: ثوب مخطط.

(2) جمالية: كالجمل، وجناء: مكتنزة اللحم، تردي: تعدو، سفنجة: نعامة، تبري: تعرض، أزعر: قليل الشعر، أربد: الذي لونه لون الرماد.

(3) تباري: تغالب من المباراة، العتاق: الخيول الكريمة، ناجيات: مسرعات، الوظيف: ما بين الرسغ إلى الركبة، المور: الطريق، المعبد: المذلل.

(4) المعنى على مثل هذه الناقة أمضي في أسفاري.

(5) خاله: ظنَّهُ، المرصد: الطريق.

(6) إذا القوم قالوا: من يدفع الشر؟ خلتُ أنني المراد بقولهم، فلم أكسل ولم أتبلد.

(7) الحلّال: مبالغة من الحلول، التلاع: ما ارتفع من مسيل الماء وانخفض عن الجبال، الرفد: الإعانة، أي لستُ ممن يستتر في التلاع مخافة الضيف.

(8) تبغني: تطلبني، الحوانيت: بيوت الخمارين.

(9) المعمّد: المقصود، وذروة كل شيء: أعلاه. وفي رواية: الرفيع بدل الشريف.

(10) الندامىٰ: الذين يشاركون في الشراب، وصفهم بالبياض تلميحاً إلى أنهم أحرار، القينة: المغنية، المجسد: الثوب المصبوغ بالزعفران، وقيل: الذي يلي الجسد.

إذا نحنُ قلنا: اسمعينا، انبرتْ لنا ... على رِسْلِها مطروفةً لم تَشدّدِ[1]

إذا رجّعتْ في صوتِها خِلتَ صوتَها ... تجاوبَ أظآرٍ على رُبَعٍ ردي[2]

وما زالَ تشرابي الخمورَ ولذّتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي[3]

إلى أنْ تحامتني العشيرةُ كلُّها ... وأفردتُ إفرادَ البعيرِ المُعبّدِ[4]

رأيتُ بني غبراءَ لا يُنكرونني ... ولا أهلُ هذاكَ الطرافِ الممددِ[5]

ألا أيُّهذا اللائمي أحضُرَ الوغىٰ ... وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنتَ مُخلدي[6]

فإنْ كنتَ لا تسطيعُ دفعَ منيتي ... فدعني أبادرْها بما ملكتْ يدي[7]

ولولا ثلاثٌ هُنَّ من عيشةِ الفتىٰ ... وجدِّكِ لم أحفلْ متىٰ قام عُوّدي[8]

فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشربةٍ ... كُميتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزبدِ[9]

وكرّي إذا نادى المضافُ محنباً ... كسِيدِ الغضا نبّهتَهُ المتورّدِ[10]

وتقصيرُ يوم الدَّجنِ والدَّجْن معجبٌ ... ببهكنةٍ تحتَ الخباءِ المعمّدِ[11]

---

(1) اسمعينا: غنينا، انبرت: ظهرت وبرزت، رسلها: وقارها، مطروفة: بها رقة وضعف.

(2) رجّعت: غرّدت، أظآر: إبل لها ولد، رُبع: وُلد في أول النتاج، ردي: هالك.

(3) تشراب: كثرة الشرب، الطريف: المال المكتسب حديثاً، المتلد: المال القديم الموروث.

(4) تحامتني: تجنبتني، البعير المعبد: المذلل المطلي بالقطران لمعالجة الجرب.

(5) بني غبراء: بني الأرض، الطراف: البيت من الجلد، وكنّىٰ بتمديده عن عظمته.

(6) الوغى: الحرب، الخلود: البقاء.

(7) تسطيع: أصلها تستطيع، ومعنىٰ البيتين: ألا أيهذا اللائمي في حضور الحرب لئلا أقتل، وفي أن أنفق مالي لئلا أفتقر، ولا ينفعني ذلك من الموت شيئاً، فدعني من لومك.

(8) الجد: الحظ، لم أحفل: لم أبالِ، عوّد: جمع عائد: وهو الذي يزور المريض عند اشتداد المرض.

(9) العاذلات: اللائمات، بشربة: أي شربة خمر، كميت: لونها مائل إلى الحمرة، متى ما تعلُ بالماء: متى صُبّ الماء عليها، تزبد: يعلوها الزَبَد أي الرغوة.

(10) كرّي: عطفي، المضاف: الخائف والمذعور، محنباً: في يده انحناء أو في ساقة، السِيد: الذئب، الغضى: نوع من الشجر، المتورد: الذي يطلب أن يرد الماء.

(11) يوم الدجن: يوم تلبّد السماء بالغيوم، البهكنة: المرأة الجميلة السمينة، الطراف الممدد: الخباء القائم على أعمدة.

كأن البُرينَ والدماليجَ عُلِّقتْ ... على عُشَرٍ أو خِروعٍ لم يُخضَّدِ[1]

كريمٌ يروّي نفسَهُ في حياتِه ... ستَعلمُ إن مُتناغداً أينا الصدي

أرىٰ قبرَ نحّامٍ بخيلٍ بمالهِ ... كقبرِ غويٍّ في البطالةِ مفسدِ[2]

ترى جُثوتينِ من ترابٍ عليهما ... صفائح صُمٌّ من صفيحٍ مُنضّدِ[3]

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي ... عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشددِ[4]

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ ... وما تنقصُ الأيام والدهرُ ينفدِ[5]

لعمرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى ... لكالطِّولِ المرخىٰ وثِنياهُ باليدِّ[6]

* * *

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضةً ... على المرءِ من وقعِ الحُسامِ المهنّدِ[7]

فذرني وخُلْقي إنني لك شاكرٌ ... ولو حلَّ بيتي نائياً عندَ ضرغدِ[8]

فلو شاءَ ربي كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ ... ولو شاءَ ربي كنتُ عمروَ بنَ مرثدِ[9]

فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارني ... بنونَ كرامٌ سادةٌ لِمُسوّدِ

أنا الرجلُ الضربُ الذي تعرفونَهُ ... خَشاشٌ كرأسِ الحيَّةِ المُتوقّدِ[10]

إذا ابتدرَ القومُ السلاحَ وجدتني ... مَنيعاً إذا بلّتْ بقائمهِ يدي[11]

---

(1) البرين: الحلقات، الدماليج: جمع دملج: وهو المعضد، العشر والخروع: نوعان من الشجر، لم يخضّد: لم يشذّب من الأغصان والأوراق.

(2) نحّام: حريص، غوي: ضال.

(3) الجثوة: الكومة من التراب، صفائح: صخور.

(4) يعثام: يختار، عقيلة مال: كرائم المال، الفاحش: البخيل.

(5) ينفد: يفنى، شبّه البقاء بكنز ينقص كل ليلة، وفي رواية: الدهر بدل العيش.

(6) الطول: الحبل الذي يطوّل للدابة فترعىٰ فيه، المرخىٰ: المرسل، الثني: الطرف.

(7) أشدّ مضاضة: أشدّ إيلاماً وتأثيراً، الحسام المهند: السيف القاطع.

(8) ضرغد: اسم جبل.

(9) قيس وعمرو سيدان من سادات العرب مشهوران بكثرة المال وشرف النسب ونجابة الأولاد.

(10) الضرب: الخفيف اللحم، وقد شبّه تيقظه وذكاء ذهنه بسرعة حركة رأس الحية.

(11) ابتدر: استبق، منيعاً: لا يُقهر ولا يُغلب، بلّ بالشيء: ظفر به.

فإن مُتُّ فانعيني بما أنا أهلُهُ وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ معبدِ[1]

ولا تجعليني كامريء ليس همّهُ كهمّي ولا يُغني غنائي ومَشهدي[2]

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار مَنْ لم تُزوّدِ

ويأتيك بالأخبارِ من لم تبعْ لهُ بتاتاً ولم تضربْ له وقتَ موعدِ

تحليل المعلقة:

تضمنت هذه المعلقة بعض أراء وأفكار طرفة وسيرته وسلوكه ونظرته للحياة والوجود. فهي صورة صادقة للشاعر وحياته، وانعكاس لما كان يعتلج في داخله من مشاعر وأحاسيس، وهي تمثّل فلسفة هذا الشاعر ـ إن جاز لنا أن نسميها فلسفة ـ في الحياة والموت والمصير، وفيما يتعرض له الإنسان في هذه الحياة من قضايا وأمور.

بدأ طرفة معلقته بالوقوف على الأطلال كعادة الشعراء في زمانه، إلا أنه لم يطل الوقوف فيها، حيث تجاوز ذلك إلى الحديث عن ناقته حديثاً مطوّلاً مفصّلاً، تناول فيه وصف أعضائها فاستغرق ذلك ثمانية وعشرين بيتاً من معلقته، وهذا الاهتمام بها يدل على مدى تعلّقه بناقته وإيثاره لها وقربها إلى نفسه، ولم يترك عضواً من أعضائها إلا أسبغ عليه صفات الحسن والجمال والقوة كما أضفىٰ عليها شدة التحمل والصبر والسرعة، فهي ضامرة البطن سريعة العدو يشعر راكبها بالأمان ولا يخشى عثارها، وهي كالجمل في وثاقة الخلق واكتناز اللحم، وكالنعامة في سرعة عدوها وإرقالها، وعلى هذه الشاكلة يستمر طرفة في وصف بقية أعضائها، فلا يدع عضواً فيها إلا ويقارنه بما وقعت عليه العين من صور حسية ممزوجة بالألفة والمحبة.

(1) النعي: إشاعة خبر الموت، أهله: أي مستحقه، ابنة معبد: ابنة أخيه معبد.

(2) أي لا تسوّي بيني وبين رجل لا يكون همّه طلب المعالي، ولا يشهد الوقائع مشهدي، غناء: كفاية، والمشهد ـ هنا ـ بمعنىٰ الشهود وهو الحضور.

ولم يكتفِ بوصف أعضائها بل تطرق في حديثه إلى ذكر خصالها وطبائعها مادحاً إياها مثنياً على ما تتحمله من جهد، وكأنه يتحدث عن صديق ورفيق تربطه به علاقة روحية وثيقة.

وبعد أن ينتهي من الحديث عن ناقته التي وفّاها حقها ينتقل إلى الحديث عن نفسه وما يتميز به من سجايا وخلال، فإذا هو إنسان اجتماعي يرتاد مختلف المجالس والنوادي، سواء تلك التي يعقدها علية القوم وسادتهم للتشاور والتباحث في الأمور العظيمة والقضايا المهمة التي له القدح المعلىٰ والنصيب الأوفر فيها، أو تلك النوادي التي تعج بالندامىٰ والخمارين والقيان الذين يلتفون حوله ليحبوهم بعطائه ونفسه السمحة الكريمة. يقول في ذلك:

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد

وقد أنفق ماله الموروث والمكتسب حديثاً على مثل هذه الجلسات الصاخبة، حتى عذله الناس ولاموه على ذلك، إذ نظروا إليه على أنه مبذّر مسرف متلاف، لا يتورع عن إنفاق ماله على حياة اللهو والطرب والخمرة، على أنه لم يكن متفقاً مع قومه في نظرتهم هذه، بل كان يرىٰ أن الحياة فانية وأن لها أجلاً محدوداً فما على المرء إذن إلا أن يقتنص فرصة شبابه ويعبّ من اللذات ويستمتع بدنياه قبل أن يحين أجله، إذ ما فائدة الحرص والتوفير والابتعاد عن سوح المعارك والحروب، هل تخلّد الإنسان وتدفع عنه الموت؟ ويجيب بأن ذلك غير ممكن. فيتساءل: لمَ الحرص إذن؟ وعلام هذا اللوم إذا كانت النتيجة واحدة وهي الموت المحتوم، يقول:

ألا أيهذا اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

إن هذه النظرة المادية وهذه التصرفات المتطرفة لم تعجب أهله وأقاربه وأبناء عشيرته، فأعلنوا مقاطعته وتركوا الاتصال به خشية أن تصيب عدوى إسرافه ومجونه بقية أفراد العشيرة، يقول:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي | وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلها | وأفردت إفراد البعير المعبد

إذ يرسم لنفسه صورة البعير الأجرب المطلي بالقطران والمعزول عن باقي الإبل لئلا يصيبها بعدوى داء الجرب، وهي صورة يعيشها ويراها أمام ناظريه كثيراً لأنه كان يتعامل مع الإبل ويعرف هذه الحالة. وهو غير نادم على تصرفاته وعلى إنفاق أمواله في اللهو والمتعة، بل هو يفلسف هذه الآراء ويبرر هذه التصرفات بحجج يراها مقنعة بالنسبة له، إذ يقول إن الحياة كنز وكل واحد منا يحرص على هذا الكنز، إلا أن هذا الكنز الثمين يتناقص يوماً بعد آخر، وتأكله السنون والدهور حتى ينفد ولا يبقى منه شيء. وإذا كان الأمر كذلك فلمَ الحرص على هذا الكنز وهو ـ ولا بد ـ نافد في يوم من الأيام، ولمَ لا نستمتع بهذا الكنز قبل أن ينفد، فالموت أو لحظة نفاد الكنز آتٍ لا محالة حتى وإن تأخر وقته، إنه مثل الحبل الذي يرخى للدابة لترعىٰ ولكن لهذا الحبل مسافة محددة لا تستطيع الدابة تجاوزه أو الإفلات من أسره. يقول طرفة موضحاً ذلك:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة | وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتىٰ | لكالطول المرخى وثنياه باليد

فحبلُ الموت ممسك بزمام الإنسان مقيد له، لا يستطيع هرباً منه أو الإفلات من قبضته حتى وإن أرخيَ له هذا الحبل ومُدّ.

إنّ تأمّل طرفة في الحياة والموت أوحىٰ له بهذه الأفكار وأوصله إلى هذه النتيجة ورسمَ له منهجاً معيناً ولكنه لم يكن صائباً في نظر الكثيرين، حيث أبعدَهُ هذا المنهج عن جادة الصواب، وسار به في طريق التصرف الصبياني الطائش الذي أوجد حالة من النفور لدى رجال القبيلة مما دفعهم إلى الابتعاد عنه ومقاطعته لما وجدوه في تصرفاته من العبث والاستهتار الذي يحطّ من قيمة الحياة الإنسانية ويجردها من المعاني الرفيعة السامية.

لقد تألّم طرفة لموقف أقاربه وأبناء عشيرته حينما تركوه معزولاً ودون

تقديم مساعدة مالية أو عطاء، فرأى أن موقفهم هذا ظالم وأن وقعه شديد على نفسه، بل أن طعناته أقوى من طعنات السيوف، يقول:

وظـلـمُ ذوي الـقـربىٰ أشـدّ مـضـاضـة على المرء من وقع الحسام المهنّد

لقد وهبَ حياته لعشيرته، إلا أنهم لم يقدّروا ذلك، بل قلبوا له ظهر المجن وابتعدوا عنه وتركوه وحيداً، وهذا ـ في نظره ـ هو الظلم بعينه، وأقسىٰ ما يكون الظلم حين يأتي من ذوي القربىٰ.

لذلك فإنه لم يجد ما يقابل به هذا الظلم إلا أن يفتخر بنفسه ويحمد لها فضائلها من الكرم والجود والشجاعة. وإنه ـ لو شاء له الله ـ لكان من الأغنياء المشهورين من أصحاب المال والجاه والأولاد مثل قيس وعمرو، إلا أنه رغب في إنفاق ماله على أصحابه وندمائه لئلا يجد البخل إليه سبيلاً.

كما وصف نفسه بحدّة الذكاء والفطنة والشجاعة وسرعة الحركة وأنه في مقدمة الذين يدافعون عن العشيرة ويحمون ذمارها لما فيه من قوة ومنعة، يقول:

أنـا الـرجـلُ الـضـربُ الـذي تـعـرفـونَـهُ خـشـاشٌ كـرأسِ الـحـيّـةِ الـمـتـوقّـدِ

إذا ابـتـدرَ الـقـومُ الـسـلاحَ وجـدتـنـي مـنـيـعـاً إذا بـلّـتْ بـقـائـمـةٍ يـدي

لذلك فهو يطلب من ابنة أخيه أن تنعاه وتبكي عليه بكاء حاراً، لأنه ليس مثل بقية الناس ذوي الذكر الخامل، وليس من الإنصاف إن يتساوىٰ هو ومَنْ لا شأن له في بكائهم وتعداد مآثرهم.

وفي نهاية المعلقة يُطلق حكمة ما زالت تُردد حتى يومنا هذا، وهو أن لا أحد يعرف الغيب وأن الأيام كفيلة بكشف المستور.

والمعلقة من الناحية الفنية تمتاز بإحكام صنعتها وقوة بنائها وجمال الصور الفنية فيها، وتنوّع الموضوعات التي تناولتها، وخصب خيال الشاعر في رسم لوحات زاهية مستمدة من البيئة والواقع المادي المحسوس الذي لم يستطع الشاعر منه فكاكاً، مما يشير إلى دقة ملاحظة الشاعر وتأثره بما يحيط به في مجتمعه وبيئته.

النـثـــر

ذكرنا في موضوع (أقسام الأدب) ص45 أن الكلام الأدبي ينقسم إلى قسمين هما: الشعر والنثر، وقد دار الحديث في معظم الصفحات السابقة حول قسم الشعر، وننتقل الآن إلى الحديث عن القسم الثاني وهو النثر، ولا نعني به النثر العادي أو الكلام الذي يستخدمه الناس للتعامل به والتخاطب والتفاهم في حياتهم اليومية، فهذا الكلام لا يدخل في مفهوم النثر الذي نريد الحديث عنه، وإنما الذي نقصده هو الكلام البليغ الذي يخضع للعناية والذي يتأنق فيه الأديب ليخرجه حسناً جميلاً يؤدي معاني كثيرة بألفاظ قليلة، مما يترك أثراً وتجاوباً لدىٰ السامع والقارئ، لأن صاحبه يقصد به إلى التأثير في نفوس المتلقين وأن يعمد فيه من أجل ذلك إلى الصياغة وجمال الأداء.

وقد يسأل البعض: هل كان للعرب قبل البعثة نثر من هذا النوع؟ وهل وصلنا كاملا أم عبثت به يد الزمن كما عبثت بالشعر؟

من المؤكد أن العرب كان لهم نثر جميل وأنهم كانوا شغوفين به مثل شغفهم بالشعر، ولكن حفظ الشعر أسهل من حفظ النثر، لذلك تعلقوا بالشعر وحفظوه أكثر من حفظهم للنثر، ثم أن الكتابة لم تكن شائعة ومنتشرة في ذلك العصر، فلذلك لم تستخدم وسيلة لحفظ النثر، وعليه فقد ضاع أكثر نثره وطواه

الزمن ولم يصلنا منه إلا النزر القليل، وشَعَرَ العرب قديماً بذلك وأشاروا إليه، إذ ورد في العمدة[1] أن بعضهم قال: " وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عُشْرُه، ولا ضاع من الموزون عُشره» ذلك أن الوزن والقافية يسهلان مهمة حفظ الشعر، بينما يخلو النثر منهما.

أقسام النثر

وردت للعرب ألوان مختلفة من النثر عبّروا من خلالها عن شؤونهم وشجونهم وعن مشاعرهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم، فقد وُجد عندهم من ألوان النثر: الخطابة والقصة والحِكم والأمثال والوصايا وسجع الكهان.

1 ـ الخطابة:

وهي لون أدبي قديم، وتكاد تكون موجودة عند جميع الأمم، وقد اشتهر العرب بخطبهم الجيدة على الرغم من صعوبة الخطابة لأنها تحتاج إلى البداهة والارتجال عكس ما نراه اليوم من تدوينها قبل إلقائها، وأهل البادية أحسن خطباً من أهل المدينة، لأنهم يجرون على الطبع والسليقة ولا يتكلفون في خطبهم، فهم طبيعيون يتكلمون على البساطة ويتمتعون بحرية واسعة، ومما ساعد على ازدهارها وانتشارها بينهم كثرة الحروب والمنازعات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى، وما يظهر عندهم من أحداث تستدعي وقوف خطيب بينهم في مجالسهم أو في أسواقهم، أو عند وفادتهم على الملوك بما لديهم من ملكات بيانية وما جبلوا عليه من فصاحة وحضور بديهة، وقد عُرف عنهم ذلك وشُهروا به، يقول الجاحظ: «وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام... عند المقارعة أو المناقلة أو

---

(1) العمدة: ابن رشيق 1/8.

عند صراع أو في حرب، فما هو إلاّ أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً. . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر. . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب»[1].

إن هذه العوامل مجتمعة ساعدت على ازدهار الخطابة، فلم تكن قبيلة من القبائل تخلو من خطيب، فهو لسانها والمتحدث باسمها، إذ كان يقف بين يدي الأمير ويتحدث بلسان قومه، فيرد عليه خطيب آخر، ولهذا كان للخطيب مكانة متميزة في عشيرته فهو عمادها المتين الذي لا يمكن الاستغناء عنه. ويقال أن الخطابة كانت من شروط السيادة، وأن أكثر الخطباء كانوا من سادات القبائل. وكان بعض الخطباء يقفون في الأسواق العظيمة ينصحون قومهم ويرشدونهم كما كان يفعل قس بن ساعدة الأيادي صاحب الخطبة المشهورة التي ألقاها في سوق عكاظ. وكان من عادتهم في الزواج وخاصة زواج الأشراف منهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته يخطب باسمه الفتاة التي يريد الاقتران بها، وخطبة أبي طالب السيدة خديجة بنت خويلد للرسول ﷺ معروفة مشهورة. كما تناولت الخطابة أغراضاً أخرى مثل المنافرات والمفاخرات بالأحساب والأنساب كمنافرة علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل إلى هرم بن قطبة الفزاري، واستخدموها في الحث على القتال والأخذ بالثأر وبعث الحمية في نفوس قبائلهم لخوض غمار الحروب والدفاع عن شرف القبيلة وكرامتها. فإذا ما أنهكتهم الحرب وطحنتهم برحاها راحوا يدعون إلى الصلح والكف عن سفك الدماء واللجوء إلى واحة السلام الآمن، كما كان خطباؤهم يمثلون قبائلهم في وفادتهم على الأمراء، حيث يقف الخطيب بين يدي الأمير فيحييه ثم يتحدث نيابة عن قبيلته في أي شأن من شؤونها، وقد يرد عليه خطيب آخر من قبيلة أخرى، حتى أصبح ذلك

---

(1) البيان والتبيين 3/ 28.

سُنة شائعة بينهم، وقد استمرت هذه العادة حتى بعد مجيء الإسلام إذ كانت وفود القبائل تفد على الرسول الكريم ﷺ فيقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ويرد عليه خطيب الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد تكون الخطبة طويلة أو قصيرة حسب الحاجة وحسب ما يستدعيه الموقف الذي يكون فيه الخطيب، يقول الجاحظ: «اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على حزبين منها الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه، ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة، ومتشاكلاً في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد... ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع»[1]، وهذا يتماشىٰ مع ما كان يقول به العرب من أن «خير الكلام ما قلّ ودلّ» ثم إن حفظ الخطبة القصيرة أسهل من حفظ الخطبة الطويلة.

ومن أهم دواعي الخطابة في ذلك العصر:

1 ـ كثرة الحروب والخصومات بين القبائل، والدعوة إلى شن الغارات أو ردّ المعتدين.

2 ـ الدعوة إلى السلم ونبذ أسباب الخلاف والتنفير منه.

3 ـ الوفادة على أمراء المناذرة والغساسنة حيث يقف الخطيب بين يدي الأمير، ويخاطبه بلسان قبيلته معظّماً ممجداً ذاكراً أسباب قدومه إليه، وما يتمنى الحصول عليه.

وفي صدر الإسلام جاءت وفود كثيرة إلى رسول الله ﷺ، وكان خطيب كل وفد يقف ويلقي خطبته أمام رسول الله عليه الصلاة والسلام ويرد عليه خطيبه.

4 ـ تسرّب الشك إلى نفوس كثير من العرب في عبادة الأصنام لتأثرهم

(1) البين والتبيين 2/7.

بالديانات النصرانية واليهودية والحنيفية، فكان بعضهم يقف في أسواق العرب ويخطب واعظاً مرشداً كما فعل قس بن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ.

5 ـ العادة المرتبطة بالزواج حيث يقوم خطيب ليتحدث باسم الخاطب ويطيل في خطبته، ويرد عليه المجيب بخطبة أقصر.

وكان الخطباء القدماء يختارون ألفاظ خطبهم ليعبروا بها عن المعاني التي ترد في خواطرهم، وغالباً ما تتناول الخطبة هدفاً واحداً يريد الخطيب إبرازه والحديث عنه، وكانت أفكارهم تميل إلى الوضوح والبعد عن التعقيد وعباراتهم محكمة البناء قوية التأثير، مع الميل إلى الجمل القصيرة لأنها تعين المستمع على الحفظ وعلى سهولة استيعاب المعنىٰ وفهمه وحصر الذهن في كلام موجز مركّز.

وكان الخطباء من الكثرة بحيث ذكر الجاحظ قسماً كبيراً منهم، فمن خطباء مكة هاشم وأمية ونُفيل وعتبة بن ربيعة وسهيل بن عمرو وغيرهم من الذين حفلت بهم دار الندوة في مكة، وفي المدينة كان منهم قيس بن شماس وابنه ثابت وسعد بن الربيع.

ومن القبائل كان عامر بن الظرب في عدوان، وربيعة بن حذار في أسد، وحنظلة بن ضرار في ضبة، وعمرو بن كلثوم في تغلب، وهانيء بن قبيصة في شيبان، وزهير بن جناب في كلب وابن عمار في طيء، ولبيد بن ربيعة في بني عامر، وقيس بن خارجة في غطفان، وأكثم بن صيفي وضمرة بن ضمرة وقيس ابن عاصم في تميم، وقس بن ساعدة في أياد، وغير هؤلاء كثير.

أنموذج من الخطب:

قيل إن أكثم بن صيفي عزّى عمرو بن هند عن أخيه فقال[1]: «إن أهل

---

(1) ينظر: تأريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ، ص202.

هذه الديار سَفر لا يحلّون عقد الرحال إلاّ في غيرها[1]. وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك[2]. واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عظة وشاهد عدل فجعَك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمته، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته، طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته، وغداً لا تدري ما أهله، وسيأتيك إن وجدك. فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر! وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها؟».

وقد يرصعونها ببعض السجع أو الجناس لما فيهما من أثر موسيقي يلفت انتباه المستمع ويغريه بالمتابعة، وقد يذكر الخطيب بيتاً أو أبياتاً من الشعر خلال خطبته أو في نهايتها توضيحاً للفكرة وجذباً للأذهان.

وقد جعلوا للخطابة سنناً معروفة وتقاليد موروثة لعل أهمها: حمل العصا التي كانت تسمىٰ (المخصرة) وذلك دليل على التأهب للخطبة إذا كانت الحالة سلماً، أما في الحرب فإنهم يعتمدون على الأرض بالرماح. وقد أشاد الجاحظ كثيراً بعادة حمل العصافي أثناء الخطبة مبيناً فوائدها للخطيب وما كانت تقوم به من دور في رفد الخطيب وخطبته بإشارات ودلائل تساعد على الوصول بالخطبة إلى هدفها.

ومن سننها: الخطبة على الرواحل في الأسواق العظام والمجامع الكبار، أو الوقوف على مرتفع من الأرض ليستطيع الخطيب أن يسيطر على الموقف ويشرف على الحاضرين ويتطلع إليهم في أثناء خطبته.

ومن سننها أيضاً: لبس العمائم علامة على المكانة العالية والمنزلة الرفيعة التي يتمتع بها الخطيب إذ أن ذلك يعد إمارة السيادة.

---

(1) السفر: جماعة المسافرين معاً، هذه الدار: الدنيا، يحلون عقد الرحال في غيرها: ينزلون، يستقرون في الآخرة.

(2) وقد أتاك: أي الموت، وارتحل عنك: أي أخوك الذي مات، يظعن: يرتحل، يدع: يترك ويفارق.

ومن الصفات المحببة في الخطيب ثبات الجنان وجهارة الصوت وقوته وحضور البديهة وكثرة الريق وقلة التلفت.

أما الصفات المذمومة والتي لا ينبغي للخطيب أن يتصف بها فهي: التعثر في الكلام والارتعاش والتنحنح، كما ذموا الخطيب الذي يكثر من مسّه لذقنه وشواربه ولحيته.

هذا وقد ارتفعت مكانة الخطيب في أواخر عصر ما قبل البعثة في الوقت الذي تدنت فيه مكانة الشاعر، وما ذلك إلا لأن نفراً من الشعراء كالنابغة والأعشىٰ وغيرهما اتخذوا الشعر حرفة وتجارة يتكسبون به، ويقول أبو عمرو ابن العلاء في ذلك: «كان الشاعر في الجاهلية يُقَدّم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيّد عليهم مآثرهم ويفخّم شأنهم، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم... فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر».[1]

2 ـ القصة:

كان العرب يشغفون بالقصص شغفاً شديداً نظراً لأوقات فراغهم الواسعة في صحرائهم الشاسعة، فكانوا حين يجن عليهم الليل وينتهون من تناول طعام العشاء يجتمعون للسمر في مضارب شيخ القبيلة أو في أي بيت من البيوت ثم يبدأ القاص يسرد لهم الحكايات والقصص والجميع يرهف إليه السمع ويتابعه وينشّد إليه الشيوخ والشباب في شوق ولهفة، وربما استمع إليه النساء والفتيات من خلف خدورهن.

وللأسف لم يدوّن هذا القصص في كتب وإنما كان يتناقله الحفظة والرواة، ولهذا لم نجد بين أيدينا الآن نماذج من تلك القصص التي كانت تروى بينهم. وإذا كان الشعر الذي هو ديوان العرب لم يدوّن إلا في القرن الثاني الهجري، فإنهم كذلك لم يدونوا القصة إلا في العصر العباسي حينما بدأوا

---

(1) البيان والتبيين 1/ 241.

بتدوين أيامهم وأخبارهم ومعاركهم التي خاضوها وما حدث فيها من قصص وبطولات، وما سجلوه منها من انتصارات، وما ذاقوه فيها من هزائم، وقد دخلت هذه القصص في ثنايا تأليفهم في كثير من المعارف والعلوم كما فعل أبو عبيدة في كتابه الذي شرح فيه نقائض جرير والفرزدق حيث ذكر فيه شيئاً غير قليل من حروبهم وما حدث فيها من أحداث، ولعل قصة الزير سالم والمهلهل وعنترة نماذج حيّة على ذلك، وإن كان قد دخلها شيء كثير من التحريف والإضافة لتكون أكثر إثارة وتشويقاً.

وكان بعض القصص يساق عن طريق العبرة والعظة كالذي يروىٰ عن الملوك وأصحاب الثروة وما حل بهم والمصير الذي آلوا إليه، فقصوا أخبار ملوك المناذرة والغساسنة وملوك حمير وملوك الفرس وغيرهم، كما قصوا أخبار السادة والرجال البارزين والشعراء، وقد حفلت كتب التأريخ والأدب بفيض زاخر من هذه القصص، لعل أشهرها قصة المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف، ويزخر كتاب الأغاني بنماذج عديدة من مثل هذه القصص، وقد يكون لبعض هذه القصص أصول حقيقية تبنىٰ عليها القصة، وقد تكون خرافة تساق ليأخذ منها الناس العبر والعظات، وأكثر القصص الخرافية دارت حول الشياطين والجن والعفاريت والغول، وربما دار بعضها حول الحيوانات والطيور والزواحف.

ـ أنموذج من القصص: (قصة الحية والفأس)

زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما، فأجدبت بلادهما، وكان قريباً منهما واد فيه حية، قد حمته من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المكليء، فرعيت فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته، قال: فوالله لأهبطنّ. فهبط ذلك الوادي، فرعىٰ إبله به زماناً، ثم إن الحية لدغته، فقتلته. فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير: ولأطلبن الحية فأقتلها أو لا تبعنَّ أخي. فهبط ذلك الوادي، فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلت أخاك، فهل لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادي، فتكون به، وأعطيك ما

بقيت ديناراً في كل يوم. قال: أفاعلة أنتِ؟ قالت: نعم، قال: فإني أفعل، فحلف لها وأعطاها المواثيق، لا يضيرها وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً، فكثر ماله ونمت إبله، حتىٰ كان من أحسن الناس حالاً. ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العيش، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟. فعمد إلى فأس، فأحدّها ثم قعد لها، فمرت به، فتبعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جُحْرها، فأثّر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، ولما رأى ذلك تخوّف شرها وندم، فقال لها: هل لك في أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه، فقالت: كيف أعاهدك؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر، لا تبالي العهد[1].

3 ـ الأمثال والحِكَم:

وهي جمل قصيرة موجزة تدل على صدق الرأي وصحة الأخبار، وتتميز عباراتها بقوة البناء ودقة السبك، وربما نشأ المثل من لفتة لشاعر في بيت من الشعر أو من برقة فكر لرجل في أثناء حديث فوافق ما ألفه الناس في حياتهم فأصبح قاعدة في السلوك الإنساني أو واقعاً لا مفر منه، ومع أن المثل قول حكيم على كل حال، فإن الحكمة قول صائب في حال مخصوصة، بينما المثل قول موافق للواقع يعمل الإنسان به[2].

ولكل مثل مورد ومضرب: أما المورد فيتمثل في الواقعة أو الحادثة التي قيل فيها المثل أول مرة. وأما المضرب فيتمثل في الواقعة المشابهة التي قد تحدث في أي زمان ويُنقل إليها المثل.

وأمثال العرب ترتبط ببيئتهم الجاهلية أشد ارتباط، فهي تعبّر عن تجاربهم أصدق تعبير، لذلك فإن تلك الأمثال التي اتسمت بعدم التكلّف خير معبّر عن ثقافة العرب وعاداتهم وتقاليدهم في ذلك العصر. والأمثال تتلقّفها الأسماع

---

(1) أمثال العرب ـ الضبي ص106 نقلاً عن العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ص402.

(2) تأريخ الأدب العربي ـ عمر فروخ 1/ 89.

لسهولة حفظها وارتباطها بحادثة أو حكاية تجعل المرء يتذكرها ويتمثّل بها لأنها خير ما يعبّر عن الحوادث المماثلة التي تمر به في حياته فيعيدها كما قيلت أول مرّة دون تغيير في نصها أو لفظها. وربما صاغ القدماء أمثالاً على ألسنة الحيوانات فتكون أكثر إثارة وأسهل في الحفظ وأشدّ طرافة.

وقد جُمعت الأمثال في عصر مبكر في عهد معاوية بن أبي سفيان فألّف عبيد بن شرية الجرهمي كتابه (الأمثال)، ومن أشهركتب الأمثال التي وصلتنا كتاب (مجمع الأمثال) للميداني، و(جمهرة الأمثال) لأبي هلال العسكري.

وهناك طائفة كبيرة من أمثال العرب وحكمهم ملأت كتباً عديدة وكان بعض مؤلفي هذه الكتب يذكر المثل ويسرد معه القصة أو الأسطورة التي تمخض عنها المثل، ويكفي أن نذكر مثالاً واحداً لذلك هو المثل المشهور (جزاء سِنّمار) الذي ساقوا معه هذه الحكاية: ابتنى النعمان بن امرئ القيس اللخمي قصراً سماه (الخورنق) بناه له رومي يسمّى (سنمار) فلما أتمه قال له سنمار: إني أعرف موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله، فقال له النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ فقال: لا، فقال: لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد، ثم أمر به فرمي من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا: (جزاء سنمار).

وهناك كثيرون اشتهروا بالحكمة والأمثال السائرة، منهم لقمان بن عاد الذي عاش في العصور القديمة، وهو غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم[1].

«ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيفي وربيعة بن هذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة»[2]. ويقال: إن أحكمهم هو أكثم بن صيفي وعامر بن الظرب، إذ تنسب لأكثم حِكم وأمثال كثيرة منها: الحرُ حرُ وإن مسّه الضر، أسوأ الآداب سرعة العقاب، إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد،

(1) البيان والتبيين 1/ 184.

(2) البيان والتبيين 1/ 365.

حافظ على الصديق ولو في الحريق، لا تطمع في كل ما تسمع، رُبّ عجلة تهب ريثاً.

أما عامر فكان حكماً للعرب تحتكم إليه، وتُنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه. وقد عاش طويلاً وعُدّ من المعمرين، ويقال إنه لما أسنّ واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقرع بالعصا إذا هو حاد عن الحكم وجار عن القصد، وفي ذلك يقول المتلمس:

لِذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما عُلّم الإنسان إلا ليعلما[1]

وكانت ابنته حكيمة مثل أبيها وقد عدت من حكيمات العرب المشهورات.

وأكثر أمثال العرب وحكمهم لا تنسب لشخص ولا يعينون قائلها، لأن الناس تهتم بحفظ المثل ولا تهتم بحفظ قائله، أو معرفة صاحبه، كما أن كثيراً من الأمثال صدرت عن أناس مجهولين مغمورين ليست لهم شهرة في جانب من جوانب الحياة. والأمثال تأخذ صورة لفظية واحدة لا تتغير سواء ضرب في حالة تناسب اللفظ أو لا تناسبه مثل قولهم (الصيفَ ضيّعتِ اللبن) بكسر التاء فهو يساق بهذا اللفظ للمذكر والمؤنث وللمفرد والمثنىٰ والجمع.

وكانت الأمثال تصاغ بأساليب بليغة موافقة لقواعد اللغة ولا تشذ عن هذه القواعد إلا في القليل النادر وكانت تمتاز بتوازن كلماتها وتساوي نغماتها واهتمامها بالسجع، وكانت تهتم بالتصوير فاستخدم فيها التشبيه والكناية وألوان البديع، فهي رموز أو شفرات في كلمات قليلة لتؤدي معاني كثيرة، وهم يتفننون في صياغها مستخدمين كل العناصر الإبداعية من زخارف وأنغام موسيقية وتجسيم للمعاني واختيار دقيق للكلمات، وكان الخطباء يستشهدون بها في أثناء خطبهم، كما كان الشعراء يرصعون بها أشعارهم.

---

(1) البيان والتبيين 3/ 38.

ـ نماذج من الأمثال:

ما يوم حليمة بسرّ، إنّ غداً لناظره قريب، مكرهٌ أخاكَ لا بطل، عند جهينة الخبر اليقين، سبق السيف العذل، لكل جواد كبوة، يداك أو كتا وفوك نفخ، لأمر ما جدع قصيرة أنفه، مقتل الرجل بين فكيه[1]، في بيته يؤتى الحكم، تجوع الحُرّة ولا تأكل بثدييها[2]، المقدرة تذهب الحفيظة، إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، من استرعىٰ الذئب ظلم، في الجريرة تشترك العشيرة[3]، وقد يأتيك بالأخبار من لم تزوِّد[4]، اسْتَنْوَق الجمل[5]، كالمستجير من الرمضاء بالنار[6]، يخبط خبط عشواء[7]، المنية ولا الدنية[8].

ـ نماذج من الحِكَم:

أول الحزم المشورة، مصارع الرجال تحت بروق الطمع، آفة الرأي الهوى، رُبّ كلمة سبقت نعمة، ويل للشجيّ من الخليّ، الصمت حكم وقليل فاعله، من شدّد نفّر ومن تراخىٰ تألّف، الرأي نائم والهوى يقظان.

4 ـ الوصايا:

هي خلاصة لتجارب الإنسان في حياته، وآخر ما يقدّمه إلى أبنائه وذويه في حياته أو في نهايتها بعد أن عاش الحياة واختبرها بكل ما فيها من حلو ومرّ.

وقد جرت العادة عند العرب إذا حضرت الوفاةُ سيداً من ساداتهم أو حكيماً من حكمائهم أن يوصي أبناءه أو أقاربه أو بعض أفراد عشيرته عارضاً

(1) بين فكيه: أي لسانه وما يتكلم به.
(2) يضرب في صيانة الرجل الكريم نفسه.
(3) الجريرة: الجناية.
(4) هذا شطر بيت لطرفة.
(5) استنوق: أصبح ناقة، يضرب مثلاً لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه.
(6) الرمضاء: الأرض شديدة الحرارة.
(7) العشواء: الناقة ضعيفة البصر، يضرب مثلاً في التعثر.
(8) الدنية: العمل الدنيء.

عليهم خلاصة ما خرج به من حياته ليرشدهم إلى أفضل الأمور، ويبعدهم عن شرارها، فيوصيهم بإعزاز الجار وحماية الحريم وإغاثة الملهوف وقرىٰ الضيف، وكل الأمور التي تقود إلى العزّة والكرامة والشرف والسيادة والرفعة.

فالوصية ـ في مجملها ـ تنزع إلى فعل الخير وتنبذ الشر بكل ما أوتي الإنسان من قدرة على نبذه. ويبدو أن بعض الوصايا لم تكن في الوقت الذي يدرك فيه الإنسانَ الموتُ، وإنما كان بعضها في الحياة أيضاً، كأن توصي الأم ابنتها قبل زفافها إلى زوجها، لا سيما إذا كان الزوج من قبيلة غير قبيلتها، إذ تعلّمها ما ينبغي عليها عمله لكي تدوم العشرة الزوجية، ويحصل الانسجام التام بين الزوجين.

وتتميز الوصية بوضوح عباراتها، وإحكام بنائها، وقِصرها وعدم إطالتها، وربما لا يوجد ربط بين أجزائها في بعض الأحيان، وقد يستخدم الموصي السجع ليزيّن به وصيته، ثم يرصعها ببعض الحِكم والأمثال:

ـ نماذج من الوصايا:

1 ـ قال قيس بن عاصم يوصي بنيهِ أن يسوّدوا كبارَهم؛ لأنه يرى في الكبير خبرةً أكثرَ من الصغير، كما يرى في سيادة الصغير مذلةً للقوم وضعفاً للقبيلة، ويوصيهم بحفظ المال وعدم تبذيره، لأنهم إذا فقدوه ألّحوا في المسألة وربما سألوا اللئيمَ وذلك شرُ كسبِ المرء. قال: «يا بُنيَّ، احفظوا عني فلا أحدَ أنصحُ لكم مني، إذا مِتُّ فسودّوا كباركم ولا تسودوا صغاركم، فيسّفهُ الناسُ كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بإصلاح المال، فإنه منبهة للكريم، ويُستغنىٰ به عن اللئيم، وإياكم ومسألة الناس فإنها شر كسب المرء».

2 ـ قال عامر بن الظرب العدواني يوصي قومه وكان من حكماء العرب، وقد عمّر طويلاً، ولما كبر اجتمع قومه وقالوا له: يا سيدنا وشريفنا أوصنا، فقال: «يا معشر عدوان... افهموا عني ما أقول لكم، من جمع بين

الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به، وإنّ الحق لم يزل يَنْفُرُ من الباطل، ولم يزل الباطل ينفر من الحق، لا تفرحوا بالعلق ولا تشمتوا بالزلة، وبكل عيش يعيش الفقير، ومن يُرِ يوماً يُرَ به، وأعدّوا لكل أمر قدره، قبل الرماء تملأ الكنائن، ومع السفاهة الندامة، والعقوبة نكال وفيها ذَمامة، فلا تذمّوا العقوبة».

3 ـ قالت أعرابية توصي ابنتها وقد زُفّت إلى زوجها: «أي بنية، إنك فارقتِ الجوَ الذي منه خرجتِ، وخلّفتِ العش الذي منه درجت، إلى بيت لم تعرفيهِ، وقرين لم تألفيه، فاحملي عني عشر خصال تكن لكِ ذخراً: أصحبيهِ بالقناعة، وعاشريهِ بحسن السمع والطاعة. . . إلخ».

5 ـ سجع الكُهّان:

السجع لون من ألوان البديع، ويتم باتفاق فاصلتين أو أكثر في الحرف الأخير من الكلمة دون التقيّد بالوزن.

ويرى بعض الباحثين أن الشعر تطوّر عن السجع، وعلى قولهم هذا يكون النثر أسبق في الظهور من الشعر، بينما يرى آخرون عكس ذلك، حيث يقولون إن الشعر أسبق من النثر، لأن الشعر وليد العاطفة، بينما النثر وليد العقل، وقبل أن يتطور عقل الإنسان كانت لديه عاطفة.

والكُهّان طائفة تزعم أنها تطّلع على الغيب، وتعرف ما يأتي به الغد عن طريق تابعهم من الجن، وكان أكثر الكهّان يخدمون بيوت العبادة التي فيها الأصنام، فكانت لهم قدسية دينية، وكان الناس يلجأون إليهم في كل شئونهم.

وقد استعمل الكهان في عصر ما قبل البعثة السجع في كلامهم وزوّقوا به أقوالهم التي تتحدث عن الغيب، وهذا الكلام المسجوع يشوبه التكلف والغموض بغية التأثير في الناس؛ ذلك أن النغم الموسيقي الناشئ عن تكرار الحرف الأخير في السجعة أبعث للطرب وأشغل للخيال وأدعىٰ للإيحاء.

وعبارات سجع الكهان قصيرة الفقرات، متساوية الفواصل، تجنح للغموض حتى تتعدد تفسيراتها، وذلك هرباً من الوقوع في الخطأ.

والكهانة ـ بحد ذاتها ـ نوع من الفراسة والحدس والتخمين، وتعتمد على قابلية الكاهن ومقدرته في التأثير النفسي على الآخرين، ولهذا فهو يسخّر السجع لتحقيق هذا الغرض حتى أصبح عادة عندهم، حيث يقال إن الكهنة كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع، وكانوا يعمدون فيه إلى ألفاظ غامضة مبهمة حتى يتركوا للسامعين مجال التأويل، حيث يفسّر السامع ما يسمعه حسب فهمه وظروفه؛ ولهذا صار كلامهم رمزاً، إذ يومئون إلى ما يريدون إيماء، وقلّما صرّحوا أو وضّحوا؛ لأن التصريح والتوضيح يتعارض مع مهنتهم التي تقوم على الإيهام والألغاز والمعميات التي تحيّر السامع وتضعه في دوامة، وهو يدور بين المعاني ليأخذ منها الأقرب إليه والذي يناسب حاله.

ولجأ الكُهّان إلى القَسم بالظواهر الكونية والأجرام السماوية ليزيدوا من قوة التأثير في كلامهم، فأقسموا بالنجوم والكواكب والليل والصبح والرياح والسحب والبحار وغير ذلك، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن هذه الأشياء فيها قوىً خفية فأقسموا بها ليؤكدوا كلامهم وليؤثروا في سامعيهم.

وكان نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى القبائل المجاورة، حتى أصبحت لهم منزلة كبيرة، فكان العرب يقصدونهم ويأتون إليهم من مناطق بعيدة. وكانوا يكثرون في اليمن حيث بيوت العبادة منتشرة فيها، وكانوا يوهمون الناس بأنهم يُوحىٰ إليهم.

ومن أشهر كهانهم: خُنافر الحميري، وعُزى سلمة، والمأمور الحارثي، وسواد بن قارب، والزرقاء بنت زهير، والشعثاء، وزبراء، والغيطة القرشية، والكاهنة السعدية.

ـ نماذج من سجع الكهان:

1 ـ قال عُزى سلمة وهو أكهن العرب وأسجعهم: «والأرض والسماء،

والعُقاب والصقعاء، وأقعةً ببقعاء، لقد نفّر المجدُ بني العُشراء للمجد والسناء»[1].

2 ـ قالت زبراء كاهنة بني رِئام تنذر قومها من غارة عليهم: «واللوحِ الخافق، والليل الغاسق، والصباحِ الشارق، والنجم الطارق، والمُزن الوادق، إنّ شجر الوادي ليأدوا ختلاً، ويحرقُ أنياباً عُصْلاً، وإنْ صخرَ الطّودِ ليُنْذُر ثُكلاً، لا تجدون عنه مَعْلاً»[2].

(1) الصقعاء: الشمس، بقعاء: ماء أو موضع، نفّر: حكمَ بالغلبة، بنو العشراء: عشيرة من فزارة، السناء: الرفعة.

(2) اللوح ـ هنا ـ: الريح، الغاسق: ، المظلم، الوادق: الممطر، الطارق: نجم الصباح: يأدو: يختل، ختلاً: متستراً، أنياباً عُصلاً: أنياباً معوجّة وهذا كناية عن الغضب والشر، الطود: الجبل، الثكل: فقدُ الولد أو الأهل، معلاً: ملجأ أو مهرباً.

فهرس المصادر والمراجع

- **الأصمعيات**: أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي ـ ت أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ مصر.
- **الأغاني**: أبو الفرج الأصفهاني ـ ط دار الكتب ـ القاهرة.
- **البيان والتبيين**: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ ت عبد السلام هارون ـ ط5 القاهرة سنة 1985.
- **تأريخ آداب العرب**: مصطفى صادق الرافعي ـ دار الكتاب العربي ـ ط4 بيروت 1974.
- **تأريخ الأدب العربي ـ الأدب القديم**: عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ ط3 بيروت سنة 1978.
- **تأريخ الأدب العربي**: كارل بروكلمن ـ ترجمة عبد الحليم النجار ـ دار المعارف بمصر ـ سنة 1960.
- **تأريخ العرب قبل الإسلام**: جواد علي ـ ط المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ـ سنة1956.
- **تفسير القرآن العظيم**: الحافظ ابن كثير الدمشقي ـ دار الغد العربي ـ القاهرة ط1 سنة 1991.
- **جمهرة أشعار العرب**: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ـ دار صادر ـ لبنان.
- **الحيوان**: الجاحظ ـ ت عبد السلام هارون ـ ط دار الجيل ـ لبنان 1996.
- **ديوان الأعشى**: ميمون بن قيس ـ دار صادر ـ لبنان 1994.
- **ديوان امرئ القيس**: ت محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط دار المعارف بمصر 1958.
- **ديوان حسان بن ثابت** ـ ت وليد عرفات ـ دار صادر ـ لبنان 1974.
- **ديوان الخنساء**: دار صادر ـ لبنان.
- **ديوان زهير بن أبي سُلمى**: دار صادر ـ لبنان.
- **ديوان عدي بن زيد العبادي**: ت محمد جبار المعيبد ـ بغداد 1966.

- **ديوان عمرو بن كلثوم**: تحقيق أميل بديع يعقوب ـ دار الكتاب العربي ـ لبنان ط1 سنة1991.
- **ديوان عنترة**: ت محمد سعيد مولوي ـ دمشق 1970.
- **ديوان لبيد بن ربيعة العامري**: دار صادر ـ لبنان.
- **ديوان النابغة الذبياني**: شرح وتعليق د. حنا نصر الحتي ـ دار الكتاب العربي ـ لبنان ـ ط1 سنة 1991.
- **شرح ديوان الحماسة** : المرزوقي ـ ت أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ مصر 1951.
- **شرح القصائد التسع المشهورات**: أحمد بن النحاس ـ ت أحمد خطاب ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد 1983.
- **شرح القصائد العشر**: الخطيب التبريزي ـ ت عبد السلام الحوفي ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان ط2 سنة 1987.
- **شرح المعلقات السبع**: الزوزني ـ دار صادر ـ لبنان 1958.
- **الشعر الجاهلي**: د. يحيىٰ الجبوري ـ منشورات جامعة قاريونس ـ بنغازي ـ ط6 سنة 1993.
- **الشعر والشعراء**: ابن قتيبة ـ الدار العربية للكتاب ـ بيروت ط3 سنة 1983.
- **الصحاح**: إسماعيل بن حماد الجوهري ـ ت أحمد عبد الغفور عطار ـ دار العلم للملايين ـ ط4 سنة 1984.
- **طبقات فحول الشعراء**: محمد بن سلام الجمحي ـ دار المعارف بمصر 1952.
- **العصر الجاهلي**: د. شوقي ضيف ـ دار المعارف بمصر ـ ط5 سنة 1971.
- **العقد الفريد**: ابن عبد ربه ـ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر.
- **العمدة**: ابن رشيق القيرواني ـ ت محمد محي الدين عبد الحميد ـ ط السعادة ـ مصر.
- **في الأدب الجاهلي** : طه حسين ـ ط1 ـ مصر.
- **مروج الذهب**: المسعودي ـ ت محمد محي الدين عبد الحميد ـ مصر.
- **المزهر في علوم اللغة**: السيوطي ـ دار الفكر ـ بيروت.
- **معجم الشعراء**: المرزباني ـ صححه وعلّق عليه د. ف. كرنكو ـ دار الجيل ـ بيروت 1991.
- **المفضليات**: المفضل الضبي ـ ت أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ دار المعارف بمصر ط3 سنة 1964.
- **المقدمة**: ابن خلدون ـ المطبعة البهية.
- **نقد الشعر**: قدامة بن جعفر ـ طبعة مصر.
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**: ابن الأثير ـ ط القاهرة سنة 1311هـ.

فهرس الموضوعات

دراسات في
أدب ما قبل البعثة

أ. د. جمال نجم العبيدي



